حكمة الصيام فى الإسلام

يمر بنا شهر رمضان من كل عام فيستقبله المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها بما هو أهله من الاحتفاء والاحتفال ، وينتدب كبار الكتاب لتحبير المقالات الضافية الذيول فى بيان منافعه فى العقول والأبدان ، وفوائده للقلوب والأرواح ، وإنه لقمن بكل هذه العناية لجليل أثره فى النفوس ، لو قامت به على وجهه الصحيح ، ولم تتحول عن صراطه السوى .

ذكر العلماء للصيام حكما كثيرة ، وعندنا أن أولى تلك الحكم بالبيان ، أثره على الإنسان فى رياضة النفس ، وثمرته فى تخليصه من سلطان المادة .

الإنسان جسد وروح ألّف الخالق الحكيم بينهما على تخالف طبيعتيهما إلى أمد محدود ؛ فمن الناس من تتسلط كدرة المادة عليه فتغلب فيه الصفات البهيمية ، حتى إنك لتراه فى مظهره إنسانا مستكملا جميع صفات التقويم الحسن ، فإذا اطلعت على دخيلة حاله تبين لك أنه يحمل نفس حيوان ضار ، لا يفكر فى غير رغباته الجسدية ، وشهواته البدنية ؛ ولا يبالى فى سبيل الوصول إليها أن يرتكب كل دنية ، أو فعلة وحشية ؛ ومثل هذا لا يعيش إلا ليأكل ويتوسع فى توفية شهواته ، وما هى إلا سنون حتى يدركه الهرم ، ويقعد به الضعف ، فيموت ميتة الحيوان الأعجم ، لم يحصّل من جهاده الدنيوى نورا يعرج به إلى العالم الذى خلق ليتحول إليه .

وقد ثبت علميا أن تجرد الإنسان لاتباع شهواته المادية ، وإغفاله لمميزاته الروحانية ، يجر عليه وعلى بنى نوعه أكبر الجرائر ، ذلك أنه لم يخلق كالحيوان محدود المطالب ، محصور الرغائب ، حتى يكون ما يحصله من حطام الدنيا كافيا لسد مطامعه ، ولكنه خلق مطلق القوى ، بعيد مدى الغايات ؛ فهو لا يكتفى بلباس وطعام يوفى بهما حاجات جثمانه ، بل لو حصل الدنيا كلها وجعلها فى قبضته وجد فى مذخور قواه مددا لاحد له يمكنه أن ينفقه وراء أى مطلب من المطالب التى يجد نفسه مدفوعا إليها ، فإذا لم يتدارك الدين الحق مثل هذه الشخصيات الخام

بالتهذيب والتلطيف ، اجتمع منها فى الأمة الواحدة عدد كبير لا يستطاع ترويضهم وإدخالهم فى حظيرة حكومة صالحة .

فشرع الله الصيام رياضة للنفوس ، ليمكن بواسطته وبواسطة الصلاة تحويل القوى الأدبية العظيمة القدر فى الإنسان ، إلى ما ينقله من حضيض الحيوانية التى هو فيها ، إلى أرقى درجات السمو الروحانى الذى خلق ليصل إليه .

فكيف يحقق الصيام هذه الرياضة ، ويدفع بتيارات القوى الأدبية الإنسانية إلى وجهة تصلح معها للحياة الملكية ، بعد أن كانت تزيده بدون هذا التحويل حيوانية على حيوانية ؟

إن الإسلام بفرضه الصلاة والصيام على ذويه قد حلاهم بأقوى الوسائل لإحداث أعجب ضروب التطور فى النفس البشرية ، بحيث تصلح لجذب أمة من طرف إلى طرف فى فترة من الزمان لا تكفى لإحداث مثل هذا الأثر الخطير فى فرد واحد .

فالصلاة عمل قلبى وعضوى لو أُدى على وجهه الصحيح لأحدث فى مؤديه انقلابا تدريجيا يشبه ما يفعله المغناطيس الحيوانى فى تعديل الطباع ، وتهذيب الأخلاق ؛ وفتح باحات روحانية للنفس تتصل معها بعالم الروح ، وتستمد منه حياة علوية ، وقوى أدبية .

تبدأ الصلاة بتكبيرة الإحرام : الله أكبر ، فلو استشعر المصلى وهو يذكر هذه العبارة معناها الصحيح ، صغرت فى عينه جميع الأغيار ، ومحقت جميع الصور ، وشعر بأنه ماثل أمام القادر الذى أبدعه . هذا الشعور وحده يخلعه من عالم المادة ويدخله عالم الروح ، فإذا قرأ فاتحة الكتاب ، وتأمل فى معانيها ، واستشعر إلى ما تشير إليه من طلب الهداية إلى الصراط المستقيم ، كان كل ذلك منه يشبه ما يسمى فى عالم النفس بالإيعاز الذاتى (Auto - suggestion) فتكيف به نفسه من طريق الاستهواء ، وتندفع لتحقيقه بكل ثبات ومثابرة . كل هذا على شرط أن يكون الدخول فى الصلاة بتجريد النفس لها من جميع الأغيار .

فإذا انضمت فريضة الصيام إلى الصلاة فى كل عام شهرا ، بلغت خاصة الإيعاز الذاتى أشدها ، وأثمرت أعظم ثمراتها :

وهذا على شريطة أن يكون الصيام كما سنه الإسلام ، لا كما حولته إليه العادات .

إن شهر الصيام الآن يعتبر شهر قصف ولهو ، وسهر وسمر ، وهو فى حقيقته شهر زهد ورياضة وورع . وهو على ما نؤديه عليه من التوسع فى المآكل ، وإحياء الليالى بالملهيات ، والنوم إلى ساعات متأخرة من النهار ، يعتبر من أشد الضربات على الصحة الجسدية والصحة النفسية معا . فالقانون الصحى لا يسمح بأن يجيع الإنسان نفسه طول النهار ، فإذا جاء المساء أكل أكل المسعور المحروم حتى لا يستطيع التنفّس ، ثم عاود الكرة بعد بضع ساعات باسم السحور ، فحشر إلى معدته كل ضروب المحظورات الغذائية ، وشرب على كل ذلك ماء غزيرا .

لا جرم أن من يرتكب مثل هذا العبث يخرج من رمضان متعب الجسم والعقل معا .

ولكن الصيام فى الإسلام هو على النحو الذى كان يعمله النبى ﷺ وأصحابه ، فقد كانوا يفطرون على تمرات ، ثم يقومون لصلاة المغرب ، فإذا أدوها عادوا لإتمام الطعام ، وهو لا يتعدى لقيمات كانوا يقيمون بها أصلابهم ، ثم جلسوا يتحدثون حتى يأتى موعد النوم العادى فى ناشئة الليل ، تلك الآونة الحافلة بالإشعاعات المهدئة للأعصاب ، ومنهم من كان يستيقظ فى الهزيع الأخير من الليل للتهجد ، ومنهم من كان ينام إلى ما قبل صلاة الفجر بقليل فيصيب قليلا من الطعام ، ثم يتوضأ ويتنفل حتى يؤذن المؤذن بالفجر فيصلون الصبح . ثم منهم من كان يظل يقظا إلى المساء ، ومنهم من كان تأخذه بعد الفجر سنة من النوم ، ثم يقومون إلى أعمالهم لا يتخلفون عن عاداتهم فى شىء .

الصيام على هذا النحو يعتبر عملا رياضيا له تأثير كبير على جسم الإنسان وروحه ، يدخل فيه فى كل عام مرة ، ويخرج منه وقد تطهر قلبه ، وتزكى ضميره ، وتنقى دمه ، وتقوت أعصابه ، وفوق ذلك كله ، هبطت عليه من عالم القدس نفحات روحانية ، وإشراقات ربانية ، لا يتصور العقل مبلغ ما تفعله فى ترقيته إلى مراتب الكمال .

هذه الرياضة إذا أضيفت إلى الصلاة ، أحدثت بين الإنسان وعالم الروح أوثق الصلات ، ونقلته من عالم الحيوانية الذى هو فيه إلى وجود سام تتيقظ فيه أكرم غرائز النفس ، وأشرف عواطفها . وهذا وحده يفسر لنا حدوث ذلك الانتقال المحير للعقل فى نفسية عرب الجاهلية فنقلتهم طفرة من حياة وحشية حافلة بالميول البهيمية ، والمقاصد العدوانية ، والإباحة الحيوانية ، إلى حياة مدنية آهلة بالعواطف الشريفة ، والنيات الكريمة والغايات النبيلة ، حياة أوصلتها إلى خلافة الله فى الأرض ، وهى درجة لم تنلها فى تاريخ الإنسانية كله إلا أمم معدودة ، نالتها الأمة الإسلامية فى أقل من ثمانين سنة ، فوصلت إلى ملك لم تصل إليه أكبر دولة فى الأرض فى ثمانمائة سنة ، وأحدثت فى العالم من الآثار العلمية والعملية والفنية ما لا تزال الأمم عيالا عليه إلى اليوم .

هذه آثار العبادات الإسلامية على الأمم ، إذا أديت على وجهها الصحيح لا على ما آلت إليه اليوم : صلاة صورية ، وصيام اتخذ وسيلة لإثارة القَرَم ، والتوسع فى النهم .

بَصَّرنا الله بديننا القويم ، وجعلنا ممن قال : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (١) (*) .

* * *

(١) سورة البقرة : ٢٨٥ .

(*) مجلة الأزهر : المجلد الثالث عشر ، ص : ٥٦١ ، سنة ١٣٦١ هـ .

الصيام فى نظر العلم

أظلنا شهر رمضان ، وهو كلما أهل أعاد إلى أذهاننا عبادة جليلة الأثر من ضروب العبادات فى الإسلام . وأذكر أنه قد سألنى سائل يوما عن العلة فى سرعة ارتقاء المسلمين الأولين ، سرعة لم يعهد لها مثيل فى أمة من الأمم ، وكان يتوقع أن أجيبه من الناحية الاجتماعية البحتة ، فقلت له : يرجع أكبر الأثر فى ذلك إلى أنواع العبادات فى الإسلام .

فقال ، وقد عجب من إجابتى : وكيف ذلك ؟

قلت : أول تلك العبادات الصلاة ، وهى تبدأ بقول المصلى : « الله أكبر » ومؤداها استصغار كل ما سوى الله ، فلا النفس ولا الأهل ولا المال ولا المتع الجسدية بذات خطر بجانب الله . وهذه العبارة تتكرر فى كل ركعة بضع مرات ، فلا يكاد يقطع المصلى عن التفكر فى صلاته قاطع حتى يقول : الله أكبر ، قائما وراكعا وساجدا وجالسا ، فيضعف سلطان الأغيار على نفسه ، وبضعفها يكمل اتصاله بقيوم السموات والأرض ، فيستمد منه حياة أدبية ، وقوة معنوية لم يكن ليتخيلها ، وبإدمان الصلاة خمس مرات فى اليوم تتبدل حاله ، وتكمل رجولته ، ويتحقق استقلاله ، ويحس فى نفسه بأنه من ضمن القوى المسخرة لتنفيذ مقاصد الخالق فى الأرض .

وثانى العبادات : إيتاء الزكاة ، وهو نظام اقتصادى فذ لم يشارك الإسلامَ فيه أى نظام اجتماعى ، وتتطلبه أوربا وأمريكا فلا تستطيعان أن تنالاه ، وقد حمى حياة جماعات المسلمين من الفقر أجيالا طويلة ، والفقر مدعاة للانقلابات الخطيرة ، ولاختمار روح الحرب الأهلية .

وثالث العبادات : صوم رمضان ، وهو أسلوب آخر من أساليب تعريض الإنسان لنفحات مبدعه ، فإن فى إجاعة الجسد تغليبا للروح عليه ، ومتى تم لها الغلب عليه دفعته إلى عالم السمو دفعا ، وكان تخلقه بالمُثُل العليا طبعا لا تكلفا .

ورابع العبادات : الحج ، والغاية منه تحقيق الوحدة الاجتماعية تحقيقا عمليا ، وإشعار كل فرد من المسلمين بأنه عضو من جسد واحد لا معدى له عن التكافل معه .

فمجموع آثار هذه العبادات يخلع عن عنق الرجل المسلم نير الطبيعة ، ويخلى بينه وبين مصدر القوى العلوية فيستمد حوله وطَوْله مباشرة منها ، فلا عجب أن يكون فى توثبه إلى أغراضه أسرع وصولا وأكثر محصولا من غيره .

كان هذا جوابى لمن سألنى عن سبب السرعة المحيرة للعقل التى استولى بها المسلمون على الزعامة العالمية فى الأرض .

وعلى ذكر الصيام نقول : إن له فوق ثمرته الروحانية القيمة ، ثمرةً جسدية لا يستهان بها ، إن أدّى على وجهه ، ولم يتخذ وسيلة للإسراف فى تنويع الأطعمة والإفراط فى تناولها .

ذلك أن الجسم الإنسانى على اختلاف أعضائه وآلاته مؤلف من خلايا ميكروسكوبية كل منها يتركب من كيس غشائى محوية فيه مادة حية يقال لها البروتوبلاسما ، وفى وسطها نواة صغيرة . هذه الخلايا تغتذى من الدم الذى يتخللها بواسطة عروقه وأوعيته التى لا تحصى ، فتأخذ منه ما يقيم أودها ، ويعينها على أداء مهمتها ، وكلما كان الدم نقيا غير حامل لمواد أجنبية كانت صحة هذه الخلايا جيدة ، وحالة الأعضاء التى تتألف منها طبيعية ، ولكن إذا دخل إلى باطن هذه الخلايا مواد أجنبية عنها ، أو بقايا متخمرة من أغذية فاسدة ، اعتلت صحتها ، وضعفت الأعضاء والآلات التى تتألف منها ، وشعر الجسم بحالة مرضية تستدعى المعالجة والعناية .

وهذه الاختمارات التى تحدث فى المعدة والأمعاء من جراء التغذى ، كثيرا ما يتولد منها ميكروبات تهاجم الخلايا الجسدية وتثقبها وتتكاثر فيها وتفسدها ، ويمتد تأثيرها إلى عدد لا يحصى من الخلايا المجاورة ، فتصيب العضو الذى تقع فيه بمرض عضال قد يفضى إلى موت صاحبه .

نعم : إن الخالق الرحيم جعل من هذه الخلايا جنودا ، وأقدرها على مكافحة الميكروبات وابتلاعها وملاشاتها ، ولكن قد يكون عدد الميكروبات كبيرا فلا تقوى

هذه الخلايا المجندة على التغلب عليها ، فتشتد وطأتها على الجسم ، وتورده حتفه بعد معاناته آلاما مبرحة .

فالويلات التى يكابدها الإنسان من ناحية الأغذية التى يتناولها لا تقف عند حد ، وهى ليست كذلك لأنها ضارة بطبيعتها ، ولكن لأن الإنسان لا يتبصر فى تناولها . فقد اعتاد أن يألف أكل أشياء لا يصح أن تؤكل أصلا ، أو لا يصح أن يستكثر منها . وهو على أى حال قد تعوَّد أن يتناول من الأطعمة أربعة أو ثلاثة أضعاف ما يكفيه منها ، وهو ما يتعود ذلك إلا من ناحية التربية . فقد كان أبواه لا يدخران وسعا فى تحضيضه على الأكل ، توهما منهم أن هذا يقويه وينشئه تنشئة ضليعة .

وقد ثبت أخيرا أن الأطفال الذين يُنَشَّئون على أغذية قليلة تطول حياتهم إلى أكثر من ثلاثين سنة بعد السن العادية لموت الإنسان . وقد جربوا ذلك فى الفيران ، وهى أشبه الحيوانات بالإنسان ، من حيث التأثر بالعوارض ، فأتوا بفيران صغيرة أطعموها قليلا ، وأخرى تركوها تأكل كما تشاء ، فشبت الأولى نحيلة ، ولكنها عاشت ثلاث سنين صحيحة ، وشبت الثانية بدينة ولم تعمر غير سنتين ، وهو عمرها العادى ، وقد كررت هذه التجربة لتكون حاسمة .

فتأثير الأغذية فى صحة الإنسان بعد كل هذه التجارب لا يمكن أن تكون محل نزاع ، وقد عرف ذلك من أقدم عهود الإنسانية ، فقال أبوقراط ، وكان عائشا قبل المسيح بنحو خمسة قرون : « أكل الناس أكل السباع فمرضوا ، فغذوناهم بأغذية الطيور فصحوا » . وقال النبى ﷺ لما أهداه المقوقس عاهل مصر بطبيب : « نحن لا حاجة لنا بطبيب لأننا قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » ، إشارة حكيمة إلى أن سبب أكثر الأمراض الأغذية .

فمن الذى يطوف بفكره وهو يتناول الطعام على مائدة مُوقرة بأطيب الألوان أن أكثر ما يستدر لعابه منها ، ينغص عليه عيشه ويقصر من أيام حياته ؟ وليست التبعة فى ذلك تقع على تلك الطيبات ، وإنما تقع على طريقة صنعها ، والإسراف فى تدسيمها وتتبيلها ، وعلى متعاطيها فى التبسط فى تناولها ، وفى تكرار العود إليها قبل الخلاص من البقايا المتخلفة منها .

فمهمة الصيام فى هذه الحالة ، إن أداه القائم به على وجهه الصحيح كما رسمته السنة النبوية ، تعتبر من أمس المهام بصحة الإنسان ، وأعودها بالخير والبركة عليه ، لأنه باقتصاره على وجبتين يترك للقناة الهضمية وقتا كافيا للتخلص من الفضلات المتخلفة فيها ، وتجد عوامل التطهير فى البنية فرصة سانحة للقيام بواجباتها ، فلا ينقضى رمضان حتى يكون الجسد قد أفرز كل ما يكون قد تراكم فيه من سموم الأغذية ، وبقايا التخمر ، وتكون حوافظ الأعضاء من شر الميكروبات قد أتت عليها اصطلاما وإبادة ، فيخرج الصائم من رمضان وقد تبدل شخصا آخر .

ولكنه إن تعدى ما رسمته السنة النبوية من القصد فى التغذى ، وإعطاء الروح حقها من الورع ، والقلب حظه من الطهر ، فأسرف فى تناول مشتهياته ، وغلّب على نفسه سوء الخلق ، وشغل لياليه باللهو والسهر ، فلا عجب إن خرج من الصيام مُوقرا بأعراض السموم الغذائية ، والإفراطات الشهوانية .

من أضر ما تعوده الناس فى رمضان أن يكثروا من أكل ألوان الحلوى ، والحلوى تصنع عادة من السكر الصناعى ، وهذا السكر معتبر علاجا لا غذاء ، فلا يسمح بالأخذ منه إلا فى حدود معينة . وهو خلاف السكر الطبيعى الموجود فى العسل والفاكهة ، وهو سكر صحى لا يضر أكله بل ينفع ويدفع أعراضا مرضية كثيرة . فإن قيل : إن أصل السكر الصناعى نباتى ، قلنا : إن توالى عمليات الإماعة والتصفية عليه تفسد العناصر العضوية التى فيه ، وتحيله إلى محصول صناعى لا يفيد الجسم بل يضره . وقد ألف الدكتور (كارتون) من كلية باريس كتابا أسماه (الأغذية الثلاثة المميتة) اللحم والكحول والسكر ، شن فيه على السكر غارة شعواء ، ولم يسمح لصحيح البنية بأن يتعاطى منه يوميا أكثر من أربع قطع ، وهى ما تكفى لتحلية كوب من شراب الليمون .

الصيام أسلوب عملى للتطهير الجثمانى والروحانى معا ، فيجب أن تعرف له هذه الصفة ، ويجب أن لا يخرج به عن حده ، وإلا انقلب شرًّا على كليهما معا (*) .

(*) مجلة الأزهر : المجلد التاسع ، الجزء الثامن ، شعبان سنة ١٣٥٧ هـ (صفحة ٥٧٠) .

وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ

إنه نظرا لاقتراب موسم الحج ، نهيب بكل مسلم إلى انتهاز الفرصة إذا سنحت لهم لأداء هذه الفريضة ، لا سيما وقد تيسرت سبل الوصول إلى البلاد المقدسة الآن ، وأصبح الحاج يستطيع أن يجد حتى فى البلاد العربية من وسائل الراحة ما لا كان يحلم به آباؤنا من قبل .

وقد فرض الله الحج على المستطيعين له ، الذين تتوافر لهم الصحة والمقدرة المالية ، فمن آنس فى نفسه الاستطاعة المشروعة وخف إليه ، فقد وقع أجره على الله ، وأصبح فى كِلاَءته وحمايته بفضله وكرمه .

ونحن نريد فى هذه المناسبة أن نذكر كلمة فى الحج نضمنها ضروبا من الفوائد العلمية والحكم الإسلامية ، فنقول :

تاريخ الحج :

الحج من الشئون الدينية التى كانت تعرف من لدن أقدم العصور عند جميع الأمم ، فما من أُمة إلا ولها مكان معين أو أمكنة تحج إليها ، وحادا أو جماعات ، فى وقت واحد أو أوقات متعددة .

فكان لقدماء المصريين وللسريان هياكل مقدسة يحجون إليها .

وكان الصينيون ولا يزالون يحجون إلى هياكل معينة فى بلاد التبت وبلاد التتار وغيرها .

أما الهنود فحجهم إلى هيكل تحت الأرض فى جزيرة اليفانتا على سواحل مالابار ، أو إلى هيكل جاجرنات أو غيرهما .

أما اليونانيون القدماء فكان لهم فى بلادهم وفى مستعمراتهم بآسيا هياكل يقصدونها ليمضوا فيها وقتا فى العبادة والنسك ، أشهرها هياكل جوبتير وديانا ومنيرفا إلخ .

وقد أُمر الإسرائيليون أن يؤموا أورشليم ليمضوا فيه عيد الفصح متعبدين مخبتين .

ولما جاءت المسيحية جعلت أمكنة الحج فى أول عهدها قبور الأولياء والشهداء . ثم حولته إلى أورشليم ، فكانوا طوال عهد القرون الوسطى يقصدونها لأداء هذا الواجب .

الحجاج من أهل الملل السابقة على الإسلام كانوا يرون أن من وجوه الزلفى من الله أن يتكبدوا فى حجهم حرجا شديدا ، فكانوا يتعمدون إرهاق أبدانهم ، كأن يقصدوا مواطن الحج مشيا على الأقدام ، أو حفاة تُدمى أرجلَهم الرمضاء . ومنهم من كانوا يتوجهون إلى الحج موقرين بسلاسل حديدية تهد القوى ، أو يقطعون إليه المساوف الشاسعة وهم داخل أكياس ليتعثروا فى كل خطوة من خطواتهم .

أما الأتقياء من الصينيين فينذرون أن يطوفوا بتلك الهياكل زحفا على بطونهم ، معتمدين على مرافقهم ، أو حاملين أثقالا باهظة على ظهورهم . وكان على الكهان أن يعينوا لهم أى أنواع الإرهاق الجثمانى أحب إلى الله من غيره .

الحج فى الإسلام :

كان العرب قبل الإسلام كسائر الأمم يحجون فى عهد جاهليتهم إلى البيت الذى بناه إبراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام فى مكة ، حتى أن أبرهة عامل أصحمة ملك الحبشة باليمن ابتنى قبل مبعث النبى ﷺ بنحو أربعين سنة كنيسة فى صنعاء ، وحاول أن يحمل العرب على الحج إليها . فلما لم ينجح فى محاولته اعتزم أن يهدم الكعبة ، فقصدها على رأس جيش ممتطيا صهوة فيل له ، فرده الله عنها ، ولم يبلغ مراده منها .

ولما جاء الإسلام جعل الحج ركنا من أركانه الخمسة ، وهو أشد أركانه كلفة ؛ لذلك أحاطه بكثير من وجوه الإعفاء جريا على أسلوبه الحكيم فى دفع الحرج عن متبعيه مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [1]

---

(١) سورة الحج : ٧٨ .

وقوله : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ (١) . فاشترط له الاستطاعة من صحة ومال ، وكره أن يرهق فيه أحد نفسه ولو تطوعا وتطلبا لزيادة الأجر . فقد روى أن النبى ﷺ رأى رجلا ماشيا يتهادى بين ولدين له يريد الحج ، فسأل عن شأنه ، فقيل : يا رسول الله إنه نذر أن يزور البيت ماشيا . فقال : « كلا ! إن الله غنى عن تعذيب هذا نفسه ، احملوه » أى على بعير .

قلنا : أقر الإسلام الحج ، ولكنه لم يدعه على ما كان عليه فى عهد الجاهلية ، فإن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة الأجساد رجالا ونساء مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون . وقد سجل الله عليهم ذلك ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ (٢) . المكاء : الصفير ، والتصدية : التصفيق . وأمر النبى ﷺ لما قوى سلطان الإسلام أن لا يدخل البيت عريان .

ونظّم – سلام الله عليه – الحج فجعل له أميرا يتقدم الناس ويتفقدهم ، ويدفع بوائق الطريق عنهم ، حتى إذا انتهوا إلى البيت تولاهم هو وخطباؤه بالإرشاد لخيرى الدنيا والدين .

وكان رسول الله ﷺ إذا أراد تعميم العلم بأمر من الأمور خطب به الناس فى الموسم ، أو أوعز إلى أميره أن يخطب الناس به هنالك .

فحوّل الإسلام الحج على هذا الوجه من عبادة جسدية لا روح فيها ، إلى عبادة اجتماعية روحية ذات أثر بليغ فى ترقية شئون المسلمين . وقد أشار الله تعالى إلى هذه المزايا العظيمة بقوله تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾ (٣) الآية . وقد فسر العلماء المنافع بأنها دينية ودنيوية معاً . وهذا شأن الإسلام فى كل ما فرضه على الناس : يراعى فيه مصلحة الحياتين جميعا .

فلو أردنا أن نستقصى ما يمكن أن يثمره الحج للمسلمين كافة من وجوه

---

(١) سورة المائدة : ٦ .
(٢) سورة الأنفال : ٣٥ .
(٣) سورة الحج : ٢٧–٢٨ .

المنافع الأدبية والمادية لضاق علينا المجال ، فإن لم يكن فيها إلا تعارف الشعوب الإسلامية ، وإلمام بعضها بحاجات بعض ، لكفاها ذلك عاملا قويا فى دفعها إلى تبادل الوسائل والتعاون على سد المفاقر، ولوصلت جميعا على هذا النحو من التكافل إلى مستوى رفيع بين شعوب العالم .

ولكن هذه الثمرات الاجتماعية الجليلة لا يمكن أن تكون إلا إذا تطورت فكرة الحج لدى المسلمين حتى تبلغ المفهوم من مراد الله من الحج . فإن المشاهَد لدى أكثر المسلمين الآن أنهم لا يلحظون فيه إلا الناحية الروحية وحدها ، وكان لتجريده لهذه الناحية أثر ظاهر فى حصره فى طبقة من المسلمين لا تتعداها إلا نادرا .

إذا تقرر هذا كان من أوجب واجباتنا أن ننوه بمنافع الحج للدين والدنيا معا ، وأن نكثر من ترويج هذه الحقيقة فى الأذهان ، وأن ننبه خطباء المساجد إلى ملاحظة هذا الأمر الجلل فى شهور الموسم من كل عام .

ولكنا نعلم من ناحية أخرى أن هذه الدعوة لا تنتج كل ما يرجى منها إلا بارتقاء العمران فى البلاد المقدسة ، وتيسير سبل الوصول إليها . أما الشطر الثانى من هذا الشرط فقد تم بما خصص للحج من بواخر إسلامية تعنى جد العناية براحة الحجاج فى ذهابهم وإيابهم ، مما أصبح مفخرة لمصر ، ونرجو أن يحذو حذوها جميع الأقطار الإسلامية . وأما الشطر الأول منه وهو انتشار العمران فى البلاد المقدسة فأدعى للعناية . فقد مر على الناس زمان كانت الشقة بين مكة والمدينة مخوفة إلى حد أنه كان من المخاطرة بالنفس اجتيازها . هذا فضلا عن أنها كانت تقطع على الإبل فتظل هذه الحيوانات تسير سيرها الوئيد اثنى عشر يوما ، ويضطر من عليها من الشيوخ والنساء أن يمضوا لياليها فى وسط فيافٍ جرداء ، أو وديان موحشة ، محرومين من جميع وسائل الإسعاف . وقد تغير ذلك اليوم ، فتعلم أذكياء العرب تسيير الأوتوموبيلات ، فصارت تقطع تلك الشقة فى ثلاث . ولكن الثلاث كثيرة على الناس أيضا فى مثل هذا العصر ، فلابد من اختصارها إلى يوم واحد بواسطة خط حديدى يمد بين مدينتى الحرمين ، يكون فيه كل وسائل الراحة لقاصدى أداء هذه الفريضة .

ويجب أن تنشأ فى مكة والمدينة فنادق على الطراز الحديث ، وأن يستكثر فيهما من عدد الأطباء والصيدلات ، وأن يدخل إليهما جميع المستحدثات النافعة من

الأنوار الكهربائية والخطوط التلغرافية والتليفونية ، السلكية واللاسلكية ، والبُرُد الجوية ، حتى لا يشعر الحجاج بانقطاعهم عن العالم .

نعم : إن هذه التجديدات سائرة هنالك بحيث يرجى لها أن تنتهى إلى هذه النهاية ، ولكن يجب العمل على تنشيطها بكل ما يستطيعه المسلمون من وسيلة ، سواء أكان ذلك بتأليف الشركات ، أو بالتبرع بالمال لجماعة تنتدب لإحداث هذه الأعمال . بهذه الوسيلة يتضاعف عدد الحجاج ، فبعد أن يكون أكبر عدد للحجاج مائتى ألف من سائر الأقطار قد يبلغ المليونين بل أكثر من ذلك ، وفى هذا رواج عظيم للشركات التى تقوم بهذه المنشآت ، وباب رزق واسع للعرب الذين يعتبرون موسم الحج حيلتهم الوحيدة فى الحياة .

ربما يرى بعضهم أنه كلما كثرت المشاق من أداء فريضة الحج ازداد ثواب الحاج . هذا لا مشاحة فيه ، ولكن لا يجوز الإبقاء على هذه المشاق لمصلحة بعض المتطوعين فى سبيل حرمان أكثر المسلمين من أداء هذه الفريضة ، إذ ليسوا كلهم من قبيل هؤلاء المتطوعين ، والإسلام جاء باليسر فى كل شىء ، ورفع الحرج عن كل ما يتعلق بالدين ، فهو دين الكافة لا دين طائفة من الناس ، وقد بنى على التيسير لحكمة عالية وغرض عظيم .

فهل خير للمسلمين أن يحج عدد قليل يجازفون بحياتهم لينالوا أكبر حظ من الثواب بسبب المشاق والأخطار التى يتعرضون لها ، أم أن يحج منهم عدد كبير لا يتكبدون مثل هذه المشاق ، ولا يتعرضون لمثل تلك الأخطار ، مكتفين بثواب القائمين بما فرضه الدين ؟

لا أظن أن يحدث خلاف فى أى هذين الأمرين خير للمسلمين ، لا لأن المصلحة تقضى به ، ولكن لأنه يوافق روح الإسلام من الرفق والتيسير ودفع الحرج والعنت فى كل شىء ، عملا بقوله تعالى : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) (*) .

---

(١) سورة المائدة : ٦ .

(*) مجلة الأزهر : المجلد السادس ، الجزء العاشر ، (صفحة ٧١٥) ، شوال سنة ١٣٥٤ هـ .

القصص فى القرآن

القرآن خاتمة الكتب الإلهية ، نزل به الروح الأمين ، على قلب محمد خاتم المرسلين ، هداية للعالمين .

ولما كانت هذه الهداية تشمل الناحيتين المادية والأدبية ، وتقتضى توفية الحاجتين الروحية والعلمية ، نزل القرآن مشتملا عليهما معا ، وجاءت فيه تلك الهداية على نوعيها متماشية مع تطور الأفهام والعقول ، ومسايرة لترقى الآداب والعلوم ، لكيلا يجىء زمان يتناقض فيه العلم والوحى ، ويضطر الناس معه لترك هداية القرآن والتعويل على هداية العلم ، ويكون فى ذلك دليل ضمنى على قصور الكتاب ، ينتهى إلى تكذيب علنى بسماويته ، احتاط لذلك الأمر القرآن ، وانفرد دون سائر الكتب بهذا الاحتياط ، على اعتبار أنه خاتمة الكتب الإلهية ، ليبقى على الدهر نبراس هداية لأهله مهما بلغوا من درجات الألمعية ، وإلى أى حد وصلوا من الفتوحات العلمية ، والانتقالات المادية والأدبية .

ونحن قبل أن نصل إلى موضوعنا نبين وجوه هذا الاحتياط التى جُعلت لتكون حوافظ للعلماء والمتعلمين أن يتدهوروا فى مزالق الفلسفة والعلم ، إبقاءً عليهم من التورط فى هذه الفتنة .

من تلك الحوافظ قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [1] رداً على سؤال بعضهم عن ماهية الروح . والمراد من هذه الآية أن يتحقق الإنسان أن ما وصل إليه من العلم لا يوصله إلى إدراك ماهية الروح ، وأنه يجب عليه أن لا يتعجل فى الحكم حتى لا يقع فى الخطأ .

ومنها قوله تعالى : ﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [2] ، وقوله تعالى :

---

(١) سورة الإسراء : ٨٥ .

(٢) سورة الأنبياء : ٣٧ .

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١) إيذانا منه عز وجل بأنه مذخور للإنسان علم عال يتبين له به أن هذا القرآن حق .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) ، وفيه ردع للمستبدين بآرائهم ، ليطأمنوا من كبريائهم ، ويحدوا من مزاعمهم ، ويعدوا أنفسهم لتلقى نقد الناقدين ، وتقويم العارفين .

ومنها قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣) ، وهو إعلان صريح بأن كل قول يجب أن يكون لصاحبه على صوابه دليل ، وأن كل من يُلقى إليه هذا القول يجب أن يطالب بهذا الدليل ، وإلا رُد عليه ما يقول .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٤) وفى آية أخرى : ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (٥) ، وفيه تصريح بأن كل مُدْلٍ برأي يجب أن يعتمد فيه على العلم ، وإلا عد قوله ظنا وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا .

وهذا كله مؤدى الدستور العلمى الذى وضعه العلامة (بيكون) الانجليزى بعد نزول القرآن بألف سنة ، وخلد به اسمه فى التاريخ .

ومنها قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ، كُلٌّ مِّن عِندِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (٦) وهذا نص صريح على

---

(١) سورة فصلت : ٥٣ .
(٢) سورة يوسف : ٧٦ .
(٣) سورة البقرة : ١١١ .
(٤) سورة الجاثية : ٢٤ .
(٥) سورة النجم : ٢٨ .
(٦) سورة آل عمران : ٧ .

أن فى الكتاب الكريم آيات متشابهة ، أى يدق إدراكها ، وتتخالف العقول فى فهمها ، وتضل فى تحقيقها ، وشُفع ذلك بنهى المؤمنين عن الاشتغال بتلك الآيات ، ونعَى على الذين يتتبعونها قصدَهم إثارة الفتنة أو تأويلها ، وما يعلم تأويلها إلا الله ؛ ويكتفى المتمكنون من العلم بأن يقولوا : آمنا به ، محكمه ومتشابهه ، كليهما من عند ربنا ، وما يدرى ما ينطوى عليه هذا الموقف من الحكمة إلا أصحاب العقول .

المتأمل فى هذه الحوافظ القرآنية يجد أنها جد معقولة ، فإن فى الكتب السماوية ، غير ما تأمر الناس به أو تنهاهم عنه ، من الآداب الكريمة ، أو الصفات الذميمة ، أمورا أخرى تتعلق بما وراء الطبيعة يجب أن يؤمن بها الناس استكمالا لحاجات أرواحهم ، وفيها إشارات لذوى البصائر النيرة لا يدركها على حقيقتها سواهم ؛ ولو اشتغل بالبحث فيها جمهور الناس ، وقعوا فيما وقعت فيه الأمم السالفة من التجسيد والتشبيه ، ودب إليهم الخلاف فيها فأصبحوا شيعا لا تجمعهم جامعة .

وفى القرآن الكريم أيضا ، على اعتبار أنه خاتم الكتب السماوية ، أخبار عن الأمم التى سلفت ، وعن الرسل الذين أرسلوا إليهم ، وعن الآيات التى عززوا بها مواقفهم لديهم ، وفى كثير من هذه الأخبار والآيات ما لا يدركه العقل فى قصوره ، ولا يعترف به العلم فى حالته الراهنة ، ولم يذكرها التاريخ أيضا ، اتخذها شبهات على الأديان من يريدون التخلص من سلطانها ، داعين إلى الناس أن يحذوا حذوهم . ولو نظروا إلى أن العلم لا يزال فى مهده ، وأن ما حصله الناس منه على جلالة قدره ، لا يبلغ عشر معشار ما سيبلغونه منه بعد قرن واحد أو بضعه قرون ، لقللوا من غلوائهم ، وعدلوا من تطرفهم . ألا يرون أن العلم الأوربى الذى كان قبل قرن واحد يقرر أن زمان العقيدة بالروح والحياة الآخرة قد انتهى ، آل أمره اليوم إلى بذل جهود الجبابرة فى تحقيق أمر الروح وبقائها بعد الموت ، حتى بلغ منه أبعد مدى ، وأعلن ذلك على رءوس الأشهاد ، وأدخل هذه البحوث إلى جامعاته الكبرى ومنها كمبردج وأكسفورد ؟

وفى عهود المرسلين السابقين ، كان الناس ، وهم فى حاجة شديدة إلى التخلص من الصفات الحيوانية ، بالخضوع للتعاليم السماوية ، لا يقنعهم بصدق المرسلين فى دعواهم إلا حدوث الخوارق على أيديهم ، فكان الخالق الحكيم يوالى الجماعات البشرية

بالرسل مزودين بالقدرة على إحداث تلك الخوارق من ضروب شتى . فلما آن للناس فى هذه القرون الأخيرة أن ينظروا فى الديانات ، وكانت الفلسفة المادية قد طوحت بهم إلى نكران كل ما لم يؤيده دليل محسوس ، أسرعوا إلى التكذيب بالنبوات ، واتهموا الأنبياء بالخداع والتدليس . ولو كانوا عاشوا إلى هذا العهد ورأوا رأى العين أكبر علماء أوروبا وأمريكا اليوم يشتغلون بالتوسع فى دراسة الخوارق ، لأدركوا أن ما يكذبونه من أخبار المعجزات التى أرسل بها المرسلون ، أصبح فى العلم ما يبررها ، ويقربها من العقول بمشاهدات محسوسة .

وكما كذبوا بالرسالات ، وخوارق العادات ، اضطروا أن يكذبوا بالنبوات ، واعتبروا جميع هذه الأخبار من الأقاصيص الخيالية ، ومحصوا حوادث التاريخ مقتصرين فيه على الحوادث الدنيوية ، تاركين أخبار الرسل وما أرسلوا به من المعجزات لأصحاب الأديان ، ودعوا ما دوّنه هؤلاء منها بالتاريخ المقدس . ولما كان أولئك القائمون بتمحيص التاريخ فى الثلاثة القرون الأخيرة من الملحدين الذين لا يؤمنون بخالق الكون ، ولا بالنبوات ، ولا بالوحى ، أطلقوا على التواريخ المقدسة للأمم اسم الميتولوجيا أى علم الأساطير ، وذهبوا فى تحقير هذه الميتولوجيا كل مذهب ، غير مفرقين بين ما يصح أن تطلق عليه هذه الكلمة من العقائد الوثنية ، والتقاليد الخرافية ، وبين الحوادث النبوية القيمة التى كان لها الفضل كله فى تهذيب النفوس ، وكبح الرعونات ، وتوجيه القلوب إلى المثل العليا من الحياة الإنسانية .

وجاءت الأجيال الحديثة فرأت نفسها من أخبار الأمم حيال تاريخ وميتولوجيا ، ودُربت على أن تعتبر الأول خلاصة ممحصة من حوادث الشعوب الماضية ، وأن تعد الثانية حكايات خيالية تنزلت من عقول ساذجة ، اخترعها لها رجال مدلسون ، فألفوا أنفسهم متحللين من كل ما حمّل الأقدمون أنفسهم من تكاليف عقيدية ، وتقاليد وهمية ، معتبرين كل ما يوجد فى تاريخ الأديان وكتبها المقدسة من أخبار وحوادث وانقلابات لا تتفق والتاريخ المبتور ، خرافات لا أصل لها فى الواقع !

فهل بعد هذا البيان يسوغ لإنسان أن يقول إن حادثة بعينها أو حوادث من قبيلها تتصل بالدين ، خرافات لا أصل لها فى الماجريات البشرية ؟

وهل بعد أن أعلن أجلاء العلماء الماديين فى أوروبا من أمثال وليم كروكس مكتشف إشعاع المادة ، وروسل ولاس نديد دارون ، وسيزار لومبروزو واضع علم الأسباب الفيزيولوجية للجرائم ، ووليم جيمس البسيكولوجى الأمريكى الأكبر ، وشرنك نوتزنج مدرس علم النفس بجامعة برلين ، إلى ما لا يحصى من أمثال هؤلاء ، قلنا هل بعد أن أعلن هؤلاء على رءوس الأشهاد وفى القرن العشرين ، أنهم قد اكتشفوا عالم ما فوق الطبيعة ، وأنهم يتحدثون مع كائنات ، وأن هذه الكائنات تتجسد أمامهم وتكلمهم ، وتحدث أمامهم من خوارق النواميس الطبيعية ما يدهش العقل ؛ قلنا هل بعد هذا يسوغ لعاقل أن ينكر المعجزات التى أيدت المرسلين فى دعواتهم الدينية ، باعتبار أنها تناقض العلم ، وتخالف نواميس الطبيعة ؛ وأن يعتبر كل قصص ورد عن مثل هذه الأمور فى الكتب الدينية من الخرافات التى لا أساس لها من التاريخ ؟ أى تاريخ بشرى يتخذ معيارا لما حدث وما لم يحدث من أخبار الإنسانية ، وهو قائم على اعتبار أن وجود الخالق والروح الإنسانية والحياة الأخروية ، والأرواح العلوية والسلفية من الأمور الخيالية ، ويتبع ذلك أن كل ما يروى عنها ، ويناقض العلم الذى قصروه على معلوماتهم المحدودة ، يجب أن يحسب من الأقاصيص الخرافية ؟!

نعم إن الحوادث التى صاحبت رسالات الرسل دخل فيها كثير من المبالغات ، ولكن لهذه المبالغات سمات يُهتدى بها إليها ، فكان الموافق للعقل والعلم لدى العائشين معنا فى القرن العشرين ، وشهدوا الفتوحات العلمية الحديثة من تفتيت الذرة وإحالتها إلى أصلها وهو القوة ، بعد أن عدها العلم مادة صلبة أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، ومن محاولة استخدام الأشعة الكونية لإحداث أعظم انقلاب فى حياة الإنسانية . ومن إثبات العالم الروحانى عمليا . كما صرح بذلك أكابر ممثلى العلم . وهذا واحد منهم (كاميل فلامريون) أشهر علماء الفلك فى القرن العشرين يقول فى كتابه (المجهول والمسائل النفسية) :

« لقد أثبتت المشاهدات الحسية وجود عالم روحانى محقق كتحقق العالم المادى المدرك بحواسنا الخمس » .

هذه مقدمة نذكرها بين يدى كلمة نريد أن نقولها عن القصص فى القرآن الكريم :

نوه الكتاب الكريم بأمم ماضية ومرسلين ، وقص من أخبارها وأخبارهم ما فيه موعظة للتالين والسامعين ، فلاحظ بعض المستشرقين ، وكلهم من غلاة الماديين ، أن من هذا القصص ما لم يرد فى التاريخ ، وبعضه يعتبر من الخرافات .

وجوابنا على هذا كله ما ذكرناه من أن الذين دونوا التاريخ قد جروا فى تمحيص الحوادث على مطابقتها لأصولهم فى تقرير الحقائق ، وقد بينا لك أن من أصولهم نكران وجود خالق الكون ، واعتبار الإنسانية والحياة بعد الموت من أعرق المعتقدات الخيالية ، وأشدها إضرارا برقى الإنسانية ، وهذا ليس بمعيار صحيح لتقدير ما هو حق وما هو باطل من الماجريات العالمية كما قدمنا .

أما ما يعتبرونه فى القصص من الخرافات ، فهو لأنهم بحثوا التاريخ على ضوء المبادئ المادية البحتة التى تعتبر ، كما قلنا ، وجود الخالق والروح ، والكائنات العلوية والسفلية ، وتأثيرها فى خرق النواميس الطبيعية ، من الأوهام الطفلية .

فإذا كان هؤلاء المكذبون ينكرون الحركة العظيمة التى قامت فى أوروبا بين العلماء مدة مائة سنة وراء إثبات عالم ما فوق الطبيعة على مقتضى الدستور العلمى ، ويهزأون بما أدت إليه من النتائج المحسوسة فى إثبات الروح والحوادث الخارقة للنواميس الطبيعية ، والقائمون بها أئمة العلم العالمى ومدعمو أصوله ، وقد ألفوا فيها مئات من الكتب ، وأسسوا لها مثلها من الجمعيات والمجلات ، وجمعوا لها نحو سبعة مؤتمرات عالمية فى أكبر عواصم الأرض ، ودخلت دراستها فى الجامعات وجعلت لها مقاعد فيها ، ينكر هؤلاء المتشكلون هذا كله وهو قائم بين أيدينا ويهزأون به ، أفيستغرب منهم بعد هذا أن ينكروا رسالات الأنبياء وأخبار الأمم السالفة وبيننا وبينها ألوف من السنين ؟ (*)

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد التاسع عشر ، (صفحة ٨) ، سنة ١٣٦٧ هـ .

حاجة الناس إلى الدين

لا تنحصر حاجة الناس إلى الدين فى تنظيم شئونهم الاجتماعية ، وإصلاح حالتهم الدنيوية ، فإن لهم فوق ذلك حاجات عقلية ونفسية لا معدى لهم عن سدها ، وهى أخص مهمات الدين ، وأسمى ما تنتظره الأرواح البشرية من الوساطة بينها وبين الملأ الأعلى .

عاش الناس آمادا طويلة رازحين تحت كلاكل الحاجات المادية ، فكان لا هم لهم إلا تحصيل ما به قوام حياتهم الجسدية ، وحتى وهم فى هذه الحالة لم تشغلهم تكاليف الحياة القاسية عن التطلع لما فوقها ، كما يدل عليه ما وُجد من الصور والعُوَذ على بعد مئات الأمتار من السطح الحالى للأرض ، أيام كان الإنسان فى العهد الأول من وجوده على هذا الكوكب .

وما كاد الإنسان يطمئن على وجوده المادى ، حتى كانت هذه الحاجة الروحية قد بلغت فيه أشدها ، فاستوعبت قواه النفسية ؛ فإذا كان الدين كما يقول الماديون قد دفع إليه الهلع من جوائح الطبيعة ، فما باله وقد ارتقى الإنسان فى أسباب مكافحتها بحوله وحيله ، يزداد ولوعا بالدين ، وتدلها فيه ، ويضحى فى سبيله وجوده المادى العزيز عليه ؟

يقولون : إنه فعل ذلك طمعاً فيما وُعد به بعد الموت من وجود كريم ، ونعيم مقيم .

نقول : ومن أين أتاه هذا اليقين الذى يدفعه إلى هذه النهايات البعيدة ، وهو وقْف على الموجودات المحسوسة ، فهل يسوّغ لنا علم البسيكولوجيا أن نعتقد أن المعقول يبلغ درجة المحسوس فى تحصيل اليقين ؟

هنا تنشأ مسألة بسيكولوجية من أبعد المسائل غورا ، وهى : إذا كان اليقين الذى يحمل على التضحية بالذات ، لا يُعقل أن يحصل إلا من ناحية المحسوسات ،

فكيف حصل من ناحية الدين ، وهو أمر عقلى بحت كسائر المعقولات ، وليس فيها ما يبلغ من الاستيلاء على النفس هذا المدى البعيد ؟

الجواب على هذه المسألة هو الحل الوحيد لها ، وهو : أن فى النفس البشرية غريزة فطرية للتدين ، يدل عليها إجماع الناس على الاحتياج إليه ، حتى فى القرن التاسع عشر الذى بلغت النظريات الإلحادية فيه أوج عظمتها ، وما كان هذا الإجماع لينعقد إلا لأن فى النفس البشرية داعية فطرية إليه ، وفى العقل الإنسانى حاجة به .

هذا التعليل ليس يشق على الفهم ، فإن للإنسان عقلا لا يقف من مطامحه عند حد ، فهو دائم النظر فى الوجود ، مغرى بالاستدلال والاستنتاج ، لا يردعه عن محاولاته هذه عائق ، حتى ولا عظمة الوجود نفسه ، فهو يحاول الوصول إلى مساتيره بكل ما يستطيعه من وسيلة ، فإن أعياه أمره لجأ إلى خاصة التفكير فيه ، وسبح منها فى مجال لا حد له ، وعاد بمدارك عليه قد لا تتفق والواقع ، ولكنه يحرص عليها جهده ، ولا يفتأ يعرضها على محك النظر والاستقراء ، غير حاسب لما يناله من وراء ذلك من لغوب .

يرى الإنسان الحوادث الطبيعية تتوالى بين يديه ، فلا يدعها تمر حتى يشبعها تأملا وتتبعا ، ليدرك أسبابها القريبة منها ، والبعيدة عنها ، طماعية فى أن يدخل الوجود وما فيه فى دائرة علمه ، وحيز إدراكه .

وقد رأى الإنسان أنه كثيرا ما أخطأ فى النظر ، وشط فى الاستدلال ، وأبعد فى الاستنتاج ، ولكن ذلك فضلا عن أنه لم يردعه عن متابعة النظر ، زاده ولوعا به . وهذا هو سر عظمته العقلية ، وعلة تأسيسه للعلوم ، وتمهره فى الفنون ، وتدرجه فى تسخير قوى الوجود .

إن كائنا هذه سيرته فى العالم المحيط به ، لا يعقل أن لا يعبأ بتحديد علاقاته بهذا الوجود ، وبالعلة التى يتخيلها لنشوئه ، ولا أن لا يأبه بنفسه وبمصيرها بعد الموت . وهل للدين معنى غير هذا فى عصر من العصور ؟ وإذا كان الأمر على ما ترى فكيف يعقل أن يكون حامل هذا الاستعداد العقلى ، والميل الفطرى بلا دين ؟

فالعلم والدين إذاً حاجتان طبيعيتان للإنسان لا يستطيع أن يعيش بدونهما ،

وهو ما تراه بعينك فى كل جيل ، وفى كل دور من أدوار البشرية . وقد كابد كل منهما ما كابده الآخر ، من النشوء ساذجا محاطا بالأوهام والظنون ، ومن التدرج على مدى العصور فى التلطف والتهذب والتجريد .

فإذا أمكنك بعد هذا البيان أن تهدم العلم وتلاشيه ، وتمنع الإنسان من التشبث به والمضى فيه ، أمكنك أن تهدم الدين وتردع الإنسان أن يشتغل به .

يقول قائل : هذا تشبيه مع الفارق ، فإن العلم قوام الحياة الإنسانية ، لا صلاح لوجود الإنسان إلا به ، ولا ارتقاء له إلا به ، فلتشبث الإنسان به ولتعويله عليه سبب معقول ؛ ولكن الدين شهوة عقلية يمكن أن تستقيم بدونه أحوال الآحاد والجماعات ، فكيف تضعهما فى مستوى واحد من الضروريات الإنسانية ؟

نقول : هذه تفرقة غير صحيحة بين الحاجات الإنسانية . فقد تكون الحاجة العقلية أشد علوقا بالنفس ، وأفعل فى تقويم الحياة ، من الحاجة المادية ، والمدار فى هذا على قيمتها فى النفسية الإنسانية ؛ أفتريد أن تقول إن ميل الإنسان إلى التبسط فى حاجاته المادية أشد من ميله إلى طمأنينته الروحية ، وأنت ترى أنه كثيرا ما ضحى بتلك الحاجات فى سبيل هذه الحاجة القلبية ، بل كثيرا ما بذل وجوده المادى فى سبيلها ؟

إن قلت : كان ذلك فى عهد قصوره العلمى ، أما اليوم وقد بلغ درجة عالية من المعارف ، فقد بدأ يحس بأن تلك الحاجة الروحية مرتكزة على هوى يمكن التغلب عليه ، وقد امّلس من علائقه كثيرون ممن تأكدوا من أصله الوهمى ، وهؤلاء الكثيرون يزدادون كل يوم عددا ، حتى لسوف يلحق بهم ، ويقول بقولهم العالم كله .

قلنا : لو كان العلم قد حقق الظن به ، فكبح من رعونة البشرية ، وكسر من عُرامها ، وعدل من غلوائها ، إلى الحد الذى يحملها على قبول الأصول الأدبية ، والعمل بها ، وتسريتها على إخوانه فى الإنسانية كافة ، لا على الجماعة التى هو منها خاصة ، لكى تزول آفة المزاحمات الحيوانية ، والمنازعات القومية ، وتبطل الحروب المجتاحة ، ويجد الهرمى والزمنى والمستضعفون حاجتهم من الكفاف ، فى ظل نظام رحيم يضعه العلم ، وتهيمن على تنفيذه النفوس الكريمة ، ليعيش الناس إخوانا

متراحمين ، لا أعداء متناكرين ؛ قلنا لو أن العلم حقق هذا الظن فيه ، ساغ لأصحاب الفلسفة المادية أن يقولوا : أيها الناس ها هو العلم قد كفا كم كل ما أهمكم فى هذه الحياة ، وكفل لكم الأمن والطمأنينة والهناءة فيها ، فانضووا إلى لوائه ، واعتصموا بجنابه ، ودعوكم من كل دعوة غير دعوته ، فليس بعد كلمته كلمة تذاع ، ولا مع أمره أمر يطاع .

ولكن العالم يرون الأمر على عكس ما تبجح به الماديون ، فإذا كان قد أنجح فى تعبيد سبل المعاش ، والذهاب بالصنائع والفنون إلى غايات بعيدة من الإبداع ، فإن النفوس لا تزال ترتع فى حمأة الحيوانية ، وتدفع بأصحابها إلى ارتكاب كل ضروب القساوات البهيمية ، فهى ما تزال فى حاجة إلى رادع قوى من أدب عال . ومن أين يجىء هذا الأدب العالى وهى لا تعتقد أن فوق الوجود المادى مهيمنا عليه يثيب المحسن على إحسانه ، ويذيق المعتدى جزاء عدوانه ، وأن حياته غير منقطعة بموت جثمانه ، وأنه قد قُدر عليه الارتقاء الأدبى ، كما قُدر عليه الارتقاء المادى ، وأن أحدهما لا يغنى عن الآخر فى حفظ حياته ، واستكمال أسباب كمالاته ؟

يقول محاورنا : لو صح ما ذكرتموه لكانت العصور التى كان السلطان المطلق فيها للدين قد خلت من ويلات الحروب ، وآفات المنازعات ، ولعاش الناس فى ظله الظليل إخوانا متراحمين متعاونين ، ولكن الذى حدث أن الحروب فى تلك العصور كانت شرا مما هى عليه اليوم ، بين بعض الأمم وبعضها الآخر من جانب ، وبين جماعات الأمة الواحدة لتفرقها فى المذاهب ، من جانب آخر .

فنجيبه : الأمر كما قلت ، ولكن لم يكن سبب ذلك الدين ، وإنما كان سببه أن الإنسان كان ما يزال فى دور الطفولة ، وجماعاته فى دور التكوين ، وطبائع الشئون العالمية داعية إلى الاضطراب وعدم السكون . وقد عُصيت وصايا الدين وأولت لتوافق ما بقى فى النفسية الإنسانية من آثار النزعات الوحشية ؛ وأصرح ما ألفت نظرك إليه الدين المسيحى ، فإنه لم ينه عن الحرب وإراقة الدماء فحسب ، ولكنه نهى عن مقابلة الشر بالشر مطلقا .

والإسلام وإن أباح الحرب جريا مع سنن الاجتماع ، فإنه أحاطها بجميع ضروب التلطيف فقال : ﴿ وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ، إِنَّ ٱللَّهَ

لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [١] . وقال : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ » [٢] .

ولكن الواقع أن الإنسان يجرى فى أدوار تطوره على سنن لا يستطيع أن يتعداها ، فوضع له الدين هذه الملطفات لكيلا تطغى عليه الميول الحيوانية .

ولكن هلم أحدثك عما فعله العلم : إنه ما فتىء بعد أن نال حريته فى الأربعة القرون الماضية يحط من قيمة الإنسانية ويساويها بالحيوانية ، وقرر أن رقى الإنسان لا يتم إلا على سنة الانتخاب الطبيعى ، الذى هو ثمرة التناحر المستمر بين الجماعات ، وقرر أن الحرب لابد منها لبقاء الأصلح للبقاء ، وإبادة الضعفاء ، فالسلام بهذا الاعتبار يكون نكبة على الإنسانية .

وقد كان من ثمرة انتشار المذاهب المادية المختلفة ذيوع رأى شوبنهوير فى التشاؤم ، ومؤداه أن الأمور تجرى فى الحياة من سيء إلى أسوأ ، وأن لا منجى للإنسان من شرورها إلا بالجلاء عن هذا العالم ، فكثر عدد المنتحرين بين الرجال والنساء ، الأمر الذى كان نادر الوقوع قبل سيادة هذه المبادىء .

وناهيك بما يستتبع فُشُوّ هذا المذهب من الاستخفاف بالحياة ، وكراهة النفوس للبقاء ، ألم يقل الفيلسوف المشهور (إدوارد هارتمان) تلميذ شوبنهوير : « إن الإنسان متى وصل إلى درجة عالية من صنع الألغام ، فإن أول ما سيعمله نسف الكرة الأرضية بمن عليها ، وتذرية حطامها فى الجواء ، تخليصا للإنسان من ويلات هذه الحياة ! » .

فإذا كانت هذه ثمرة العلم المادى فهى ليست بالتى تمده بالحياة الطيبة ، وتدفعه إلى المثل العليا من الإنسانية الفاضلة ، بل هى ثمرة كلما أوصلته إلى تسخير قوة من قوى الطبيعة ، استخدمها فى ابتكار وسائل لإهلاك بنى جنسه ؛ فلا يعقل أن يسود السلام فى الأرض ويصبح أهلها إخوانا متزاملين ، كما تحلم بذلك النفوس المطمئنة ، ما دامت هذه الروح الشريرة لا تجد أمامها ما يكبح جماحها من عقيدة ملطفة .

---

(١) سورة البقرة : ١٩٠ .

(٢) سورة الأنفال : ٦١ .

يقول مجادلنا : ومن أين تأتى بهذه العقيدة ، وتقيم على صحتها الدليل على شرط الفلسفة الحسية ، كما هو مطلوب العقلية الإنسانية الراهنة ؟

نقول : أين مجادلنا من تاريخ العلم وهو يُدل به علينا ؟ إن العلم يشتغل منذ مائة سنة بتحصيل هذا الدليل ، وقد انتهى إلى بينات سحقت المذهب المادى سحقا ، وذرته فى ذيول السافيات ، فهل لا يزال مجادلنا قابعا فى زاويته لم تبلغه منه دعوة؟ فما أحكم الأستاذ الفلكى الكبير كاميل فلامريون حين قال فى كتابه المجهول والمسائل النفسية :

« إن من الناس من تسقط السماء على الأرض بين يديه فلا يشعر بها ! » (٥).

* * *

(٥) مجلة الأزهر : المجلد الثالث عشر ، الجزء الخامس ، (صفحة ١٩٧) ، سنة ١٣٦١ هـ .

منطق الدين
محاولة وضع أداة علمية لمعرفة الدين الحق

للمعقولات أداة يقال لها المنطق ، تعصم الفكر عن الخطأ ، وهو مؤسس على القوانين العقلية ؛ وللمعلومات أداة أيضا يقال لها المنطق العلمى ، تحمى الباحث فيها من الانخداع بالظواهر ، والخلط بين ما هو علم يقينى ، وما هو رأى مرجح ، وما هو افتراض مؤقت ، وتدُلُّه على ما يجب الجرى عليه فى جمع المشاهدات وترتيبها ، والتأمل فيها وتمحيصها ؛ كل ذلك ليأمن العقل بالأول من الخبط على غير هدى ، والتأدى إلى أوهام يظنها معقولات وليست بها ؛ ويتقى الباحث بالثانى رفع الأمور الظنية ، إلى مرتبة العلوم اليقينية ، فيقع بسبب ذلك فيما كان عليه السابقون من اعتبار الآراء والافتراضات معارف مقررة وهى ليست منها ، ويكون وجودها معطلا له عن الوصول إلى الحقائق الثابتة .

وضع المنطق أرسطو فى القرن الرابع قبل المسيح ، وأكمله من جاء بعده من كبار الفلاسفة ، ووضع الثانى العلامة (بيكون) الإنجليزى فى القرن السابع عشر . وأنا أرى أن الدين يجب أن يكون له منطق يحفظ من يريد الاهتداء إلى صحيحه من الخلط بينه وبين فاسده ، وفيما وصل إليه العلم العصرى والفلسفة الحديثة من المعلومات المحققة ، والنظرات الصادقة ، ينبوع لا ينضب لبناء أصول هذا المنطق . وإذا كان عهدٌ يُعتبر أكثر عهود العقلية الإنسانية صلاحية لهذا العمل الدينى الخطير ، فهو هذا العهد الذى نعيش فيه ، وذلك لعدة وجوه :

(**أولها**) أن العلم قد وصل إلى حد بلغ فيه سن الرشد ، لا من ناحية أنه انتهى إلى حدود ما يمكن معرفته ، ولكن من ناحية أنه أدرك أنه يستحيل أن يعين ما يمكن معرفته من المجهولات ، وما لا يمكن معرفته منها ، وأن أفق المعرفة انفرج أمامه إلى ما لاحد له ، وأصبح من كثرة ما منى بالمفاجآت ، يتوقع أن يباغت بشىء منها يقلب جميع مقرراته رأسا على عقب ، حتى قال العلامة الكبير هنرى بوانكاريه

أحد أعضاء المجمع العلمى الفرنسى فى كتابه (العلم والافتراض)
: « La Science et L'hypothèse »

« لما تروى العلماء قليلا (فى العهد الأخير) ، لاحظوا مكان الافتراض من العلوم ، ورأوا أن الرياضى نفسه لا يستطيع الاستغناء عنه ، وأن التجربة لا تستغنى عنه كذلك . حينذاك سأل بعضهم بعضا : هل هذه الصروح العلمية على شىء من المتانة والرسوخ ، وتحققوا أن نفخة واحدة تكفى لجعل عاليها سافلها » .

(**ثانيها**) إفاقة العقلية العلمية من غرورها القديم ، وهذه الإفاقة ثمرة الرشد الذى بلغه العلم ، وبيناه فى الوجه السابق ، فقد كانت الخيلاء العلمية قد انتهت فى القرنين الثامن والتاسع عشر إلى حد لا يطاق ، حتى ظنوا بأنفسهم ما لا يصح أن يظنه عاقل بنفسه ، وترفعوا فى سبيل ذلك عن قبول أى قول يخالف ما كانوا عليه . حتى إنه لما حلل العلامة (لافوازييه) الهواء إلى أوكسيجين وأزوت فى القرن الثامن عشر ، وأعلن ذلك للعلماء ، كذبوه أشنع تكذيب وعارضوه بأن الهواء من العناصر الأربعة ، وأنه لا يعقل أن يكون مركبا . فأخذ يلفت نظرهم إلى أنه إنما يحدثهم عن تجربة علمية يمكن شهودها عمليا ، لا عن رأى يقبل الأخذ والرد . فلم يرفعوا باكتشافه رأسا خمسا وعشرين سنة ، ثم قبلوه كارهين وكادوا لا يفعلون .

ولما اكتشف العلامة باستور أن الحى لا يمكن أن يتولد تولدا ذاتيا ، وكانت هذه عقيدة راسخة عند العلماء ، قابلوا اكتشافه بالازدراء والسخرية . فقال لهم : إنى لا أدعوكم إلى مسألة فلسفية ، ولكن إلى تجربة علمية ، فلم يقيموا لكلامه وزنا ، غرورا بما كانوا عليه ، فظل ينافح عن اكتشافه عشرين سنة حتى قبلوه مضطرين .

(**ثالثها**) بلوغ الدراسات الدينية ممن وقفوا أنفسهم لهذه الناحية التاريخية من النفسية البشرية ، إلى حد النضج ، فعرفت أصول الأديان ، وظهر تسلسل بعضها من بعض ، وعرف أن أصلها جميعا التوحيد الخالص لا التعدد فى الآلهة ، قرر ذلك كبار المستشرقين وعلى رأسهم الأستاذ الألمانى الكبير (ماكس موللر) . ودُرست الكتب السماوية دراسات تحليلية ، وضُبطت سنو تدوينها ، وعُرف ضياع أصول أكثرها ، وضياع تراجمها أيضا التى أخذت عنها النسخ الموجودة الآن ، واكتشفت أمكنة التحريف من بعضها ، وحللت شخصيات رجالاتها ، وحُررت أقوالهم

وآراؤهم ، وعُلم مبلغ تأثير كل منها فيما عليه أصحاب تلك الأديان الآن . فأصبح من يريد التبحر فى هذه الموضوعات ، حيال ذخر جليل القدر من مؤلفات توصله إلى ما يريد كشفه منها ساعة طلبه ، لا يبذل فيه جهدا ، ولا يكد له عقلا .

(**رابعها**) إكباب العلماء والفلاسفة وقادة الأفكار منذ تسعين سنة ، عقب ظهور حوادث خارقة للعادة ، على دراسة النفس الإنسانية على أسلوب عملى تجريبى ، من ناحيتى التنويم المغناطيسى والوساطة بين العالمين . وقد أفضت هذه الدراسات العملية إلى تجارب حاسمة تثبت وجود روح فى الجسم الإنسانى مستقلة عنه ، يمكن إخراجها منه بواسطة التنويم العميق ، فتتجسد على صورته تجسدا خفيفا مستعيرة جسدا من مادته ، يمكن تعيين وزنها ، بما نقص من جسم المنوَّم ، وتظهر حاصلة على عقليته ونفسيته وكل مميزاته ، ظهورا يلمس ويصور ، وتصدر منها أفعال مادية لا تدع فى النفس شبهة . ثبت كل هذا ثبوتا علميا ، ولا عبرة بمن يجهله ممن لا يعنيهم أمره .

هذه الثمرات العلمية التى تقررت على مقتضى الدستور العلمى الصارم ، قد أتت على جميع شبهات الماديين ، وقضت على مذهبهم قضاء لا أمل فى قيامه بعدها . فخلصت بذلك العقول من المآزق التى كانت دفعتها فيها الفلسفة المادية ، واتجهت إلى آفاق جديدة من الدراسات العالمية متبعة أصول الدستور العلمى ، لا سابحة فى جو الخيال الذى لا يؤمن معه الشطط ، ولا يرجى به الوصول إلى الحقيقة الطبيعية . هذا حدث جلل خص الله به أهل القرن العشرين الذى طغت فيه الفلسفة المادية طغيانا كادت معه تلحق الإنسان بالحيوان الأعجم .

(**خامسها**) كل هذه الفتوحات العلمية نبهت فى القلوب العاطفة الدينية ، وأيقظت مطالبها الروحية ، وفتحت للعقول آفاقا عليا تاقت معها إلى البحث عن نظام دينى يتفق ومقررات العلوم ، ويصلح لأن يرقى بالروح فى عالمها خالصة من وساوس الأساطير القديمة ، حرة من قيود التقاليد الميتولوجية البائدة . وقد دفعت هذه النزعة الشريفة رجالا من أكبر مفكرى العالم فى أواخر القرن التاسع عشر ، إلى وضع دين علمى سموه الدين الطبيعى ، جعلوا أساسه الاعتقاد بالله وبخلود الروح ، وتعاليمه الآداب العالية ، والأخلاق الصالحة ، والسيرة القويمة ، مما يشير

إليه العلم بجملته وتفصيله . هذه الديانة التى قام بها أكبر فلاسفة العصر من أمثال جول سمون وكارو ، لقيت إقبالا عظيما من كبار العقول ، وأصبح أشياعها لا يحصون كثرة وإن كان لا يشعر بهم أحد .

هذه الحالة العلمية والنفسية الراهنة ، تسمح لمثلى أن يستفيد منها فى وضع منطق دينى ، مستمد مما تقرر من ثمرات المعارف المحصة ، بحيث لا يخرج فى أصل من أصوله عما ثبت بالبرهان القاطع من بحوث العلماء ، وما عرف من اتجاهات النفسيات الصافية . وإنى أعتقد أن الروح العصرية قد نضجت لظهور مثل هذا العمل العلمى ، فإن المقررات التى يجب أن يستمد منها مادته ليست مما يتغير بتغير الأزمان ، ولست أبالغ إن قلت إنها أصبحت بدهيات علمية تكاد تكون فى مستوى المعلومات الضرورية للإنسان .

الآن يسوغ لنا أن نبدأ فيما نحن بسبيله من بناء هذا المنطق الخاص فنقول :

الأصل الأول :

الناس كلهم إخوان متساوون فى الحقوق ، لا يتفاضلون بأجناسهم ولغاتهم وبيئاتهم وألوانهم ، ولكن بمزاياهم الأدبية ، وقواهم العقلية ، وقد خلقوا ليترافدوا على تذليل مصاعب الحياة ويتحابوا ، لا ليتناكروا ويتناحروا .

تفصيل هذا الإجمال :

من العلم المحسوس أن الناس جميعا نشأوا من أبوين اثنين ، فألفوا فى أول أمرهم جماعة واحدة ، قامت من الأرض على بقعة واحدة ، فلما كثروا وضاقت بهم بيئتهم ، نزحت طوائف منهم إلى بقاع جديدة ، ثم تكاثروا وتفرقوا ، وتكاثروا وتفرقوا ، وفى كل مرة يزداد بعدهم عن بيئتهم الأولى ، حتى ملأوا الأرض على رحبها . هذا هو السبب الطبيعى فى وجود القبائل والشعوب والأمم وتفرقها فى الأرض .

ولما كانت حياة الإنسان فى أول أمره ساذجة ، لم يضطر من اللغة إلا لما يدل على حاجاته الضرورية ، وكلما اضطر لشىء وأوجده بما مُنحه من قوة العقل ،

أطلق عليه اسما جديدا . وبما أن هذا التوسع فى إطلاق الأسماء نشأ وجماعاته متفرقة فى الأرض ، جاءت هذه الأسماء متخالفة ، وكان هذا سبب تخالف لغات البشر فى بقاع المعمور .

أما اختلاف الألوان ، فنشأ من تفاوت درجات الحرارة والرطوبة فى الأصقاع الأرضية ، فمن سكن البقاع من القطبين ، جاءت ألوانهم ناصعة البياض لضعف تأثير الأشعة الشمسية فى تلوين بشرتهم ، وكلما بعدوا عنهما واقتربوا من خط الاستواء ، اشتد فعل الشمس على خلايا أجسادهم فبعدت عن البياض الناصع يسيرا يسيرا ، حتى انتهت فى المناطق المحرقة إلى السواد الفاحم ، وكان هذا مصدر اختلاف الألوان فى النوع الإنسانى . ولو كان له مصدر غير هذا لوجدت فى المناطق المختلفة ، ألوان متخالفة لأهلها الأصليين ، وهذا لا وجود له ألبتة .

هذه هى الأسباب الطبيعية للفوارق الرئيسية بين طوائف الأسرة الآدمية .

ولسنا نشك فى أنه كان للبيئات المختلفة ، وما لقيته الجماعات فى رحلاتها الشاسعة ، ولاختلافات الجواء وانقلاباتها الكثيرة ، ولما اضطرت إليه من ضروب الجهود ، ولما دُفعت إلى التعويل عليه من المواد الغذائية ، والتواء طرق الوصول إليها ، قلنا : لسنا نشك فى أنه كان لكل ذلك تأثير فى إحداث الاختلافات فى أشكال جماجمها ، وصفات وجوهها ، وقابلياتها للتعقل والترقى ، مما لا يجوز نكرانه أو تجاهل تأثيره .

هؤلاء الأقوام رغما عن تباعد بيئاتهم ، وتباين أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ، يعتبرون إخوانا بحكم النسب الطبيعى الذى لا خلاف فيه . وهم وإن اختلفوا فى بعض التفاصيل الصورية إلا أن لجميعهم نفوسا وعقولا وميولا متشابهة فى أصلها ، وإن تنوعت بسبب العوامل التى احتوشتها . ولكن هذه الاختلافات لم تَعْدُ على فطرتهم الإنسانية ، ولا تصلح أن تكون سببا لحرمانهم من الحقوق الطبيعية . فلا يوجد شعب فى الأرض يشذ عن الألفة والانضمام للجماعة ، لو آنس فى القائمين بهذه الدعوة روح الإنصاف والرحمة وشرف النفس ، ورأى أن نصيبه من العمل لمصلحة المجموع يحمل إليه كاملا موفورا . ولكنه يشذ وينفر ويفضل الموت على

الحياة دفاعا عن حوزته ، لو رأى أن قواه تستغل كما يستغل قوى الحيوان ، ولا يناله من وراء كده ما يقيم أوده ، ويصلح من شأنه .

فأساس الفرقة والتناحر ، الظلم والأثرة والغشمرة . وما دام الأقوياء المتعلمون يتصفون بها ، ويعامل بعضهم بعضا على موجبها ، فلا يزالون يتناحرون حتى تسفك آخر قطرة من دم الجاهلية فيهم . وهذا لا يمنع أن المثل الأعلى الذى قرره العلم هو أن جميع الناس إخوان ، وأنه يجدر بهم أن يتعارفوا ويتعاونوا ، لا أن يتناكروا ويتناحروا . أما مسألة : هل هذا ممكن أو غير ممكن فى هذه الحياة ، فلا تقدح فى أصالة هذا الأصل ، ولا فى كونه المثل الأعلى .

نعم لا تقدح فى أنها المثل الأعلى للحياة الاجتماعية ، لأنها إن كانت غير ممكنة فى عصر الإنسانية الراهن فذلك بسبب ما لا يزال موجودا فى النفسية البشرية من أدران الجاهلية ، وبقايا الصفات الحيوانية ، من الأثرة والعدوان على الغير وحب الذات وخمود العاطفة ، وقد أجمع علماء الأخلاق أن هذه كلها أدواء نفسية يمكن معالجتها وزوالها ، ولو بعد آماد طويلة تمضى فى التطورات الأدبية . وما كان من هذا النوع من الصفات فسواء أبقى ملازما للبشرية أم زايلها ، فلا يقدح وجوده فى وجود المثل الأعلى لحياة اجتماعية أفضل مما هى عليه .

على أن فى العالم الإنسانى أفرادا كثيرين حصلوا على درجة ممتازة من السمو الخلقى يقومون على هذا المثل الأعلى ، وهم لو وُكل إليهم تنظيم علاقات الناس بعضهم ببعض ، لما جروا إلا على هذه الشاكلة . وما جاز على هؤلاء الأفراد الكثيرين يجوز على غيرهم من بقية الناس ، ولو بعد آماد طويلة ، إن قدر للإنسانية أن تصل إلى الدرجة التى تتصورها من السمو الأدبى . وليس من شروط صحة المثل العليا أن تكون ممكنة فى عهد من العهود المنحطة للإنسانية ، ولكن يكفى أن تكون معقولة لديها ، ومبنية على أصول تقوم عليها الحياة على أكمل وجه .

تطبيق هذا الأصل على الإسلام :

قبل أن ننتقل إلى الأصل الثانى من المنطق الدينى ، يحسن بنا أن ننبه إلى أن هذا الأصل الأول ينطبق على أول أساس وضعه الإسلام ليقيم عليه صرح الدين العام ،

الذى أعلن أنه دين البشرية كافة ، فقد قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) . أنزلت هذه الآية إيذانا للناس كافة بأنهم إخوان أبوهم جميعا واحد وأمهم واحدة ، وأنهم وإن تفرقوا فى البلاد ، واختلفوا فى الأجناس واللغات والألوان ، فإن تلك الخلافات لا تزيل عنهم صفة الأخوة بل توجب عليهم أن يتعارفوا ، والتعارف يدعو إلى التعاون والترافد ، وإلى التكاتف والتساند على تذليل عقبات الحياة .

ولما كان شر ما خلفه تباعد البيئات ، وانقطاع الصلات ، وتباين اللغات ، وهماً استولى على نفوس كل جماعة بأنهم خير ممن سواهم ، وأنهم أحق برغد العيش ، والسيطرة على الخلق من كل من عداهم ، صرح الحق بأن هذا الوهم لا يجوز أن يقام له وزن ، وأن المعيار الصحيح للتفاضل هو تقوى الله ، والقيام بمحابه ، والابتعاد عن مكارهه . فلا الأبيض بأفضل من الأسود ، ولا العربى بأمثل من الأعجمى ، إلا بعمل طيب ، وبتقوى باعثة على الصلاح . وللنبى ﷺ تفصيل لهذا الإجمال ، فقد قال : « ليس لأبيض على أسود ، ولا لعربى على أعجمى فضل إلا بتقوى أو بعمل صالح ، كلكم من آدم وآدم من تراب » .

وروى أن أباذر الغفارى وهو من كبار رجالات الإسلام ، قاول عبدا أسود فى حضرة النبى ﷺ ، فاحتد عليه وقال له : يا ابن السوداء ! فغضب النبى ﷺ ونظر إلى أبى ذر وقال له : « إنك امرؤ فيه جاهلية ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل » إلى آخر الحديث السابق .

وكان النبى ﷺ لا يفرق فى الحقوق والمعاملات بين أبيض وأسود ، ولا بين عربى وأعجمى ، ولا بين حر ومولى ، فقد روى أنه ولى بلالا المدينة وفيها كبار الصحابة ، وأصله مملوك اشتراه أبو بكر وأعتقه .

وولى ﷺ باذان الفارسى على اليمن ، ولما مات ولى ابنه مكانه .

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

وكان لسلمان الفارسى وصهيب الرومى وغيرهما حظ كغيرهم فى التقلب فى المهام الاجتماعية .

عامل المسلمون جميع الشعوب التى دخلت فى دينهم معاملة الإخوان بدون التفات إلى لغاتهم وأجناسهم وألوانهم ، وعاملوا من عاهدهم أو خضع لحكمهم بأدق أصول العدل ، فساووهم بأنفسهم أمام المحاكم ، وراعوا فى معاشرتهم ما راعوه مع أبناء ملتهم من حقوق الجوار . وقد أمر الإسلام بمراعاة حقوق هذه الأخوة الإنسانية العامة حتى فى الحرب ، فأمر أن لا تحرق دور المحاربين ، ولا تباد زروعهم ، ولا تعطل مرافقهم ، وأن لا يجهز على جريحهم ، ولا يعتدى على أسيرهم ، بل أن يكرم ويحسن إليه . وبالغ فى وجوب مراعاة هذه العواطف النبيلة ، حتى أمر أن لا يمس خدم جيوشهم بسوء ، وأن لا يقتل الشيوخ والزمنى ورجال الدين ، وأن لا يصادروا فى حريتهم الدينية . وهذا شىء لم تعرفه الإنسانية حتى فى العصر الراهن .

فالإسلام فى كل محاولاته قد رمى إلى تأليف أمة عالمية ، تمثل فيها جميع الأجناس والأقوام والألوان تقربا من المثل الأعلى . وهذا أول ما حدث من نوعه فى الأرض .

فى المقالات التالية ندرس جميع أصول منطق الدين تباعا إن شاء الله (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد العاشر ، الجزء الثانى ، (صفحة ١٤٦) ، سنة ١٣٥٨ هـ .

منطق الدين
محاولة وضع أداة علمية لمعرفة الدين الحق
الدين غريزة عقلية

نشرنا فى العدد الماضى المقدمة والأصل الأول لهذا المنطق الدينى واليوم نورد الأصل الثانى منه :

الأصل الثانى :

الدين غريزة عقلية موهوبة لا مكتسبة :

لم ير المنقبون فى أساطير الأمم أمة مجردة من الدين ، إذا فُهم الدين بمعناه الساذج المتناهى فى البساطة ، ولكن إذا فُهم بتوابعه من عبادات وكهنة وهياكل ، فربما انخدع الباحث بعدم وجود تلك التوابع فظن أن بعض الجماعات تعيش بغير دين . وقد خطأ كبار العلماء هؤلاء الباحثين فى اعتمادهم على الظواهر ، وقرروا عدم وجود مجتمع يخلو من الدين على أية حالة من الحالات ، حتى الجماعات اللاتى كانت عائشة فى عصر الحجر . ومن هؤلاء العلماء الأستاذ روسكوف من جامعة فينا ، وماكس موللر من ألمانيا ، وهربرت سبنسر وتيلر من انجلترا ، وغيرهم ، وقد فندوا جميعهم قول المنكرين بالحجج الدامغة .

على أنه مما لا خلاف فيه أن الجماعات البشرية الأولية كافة قد أطبقت على القول بوجود قوة شاملة فوق العالم المادى هى مصدر كل خلق وإبداع ، تمد كل كائن بالقوى والوسائل الضرورية له لحفظ شخصه ونوعه . ويمكن استمداد الحول منها بالتوجه إليها وأحداث أمور خارقة للعادة . وقد سماها بعض هذه الجماعات (مانا) وبعضها (واكان) وغيرهم (وشورنجا) و(أورندا) إلخ على حسب اختلاف اللغات ولكن معناها عند الكافة واحد .

قال العلامة (ماكس موللر) الألمانى فى كتابه (أصل الدين وتطوره) :

(Origine et dèveloppement de la religion) :

« المانا فى اعتقاد البولينيزيين ترينا كيف ظهرت ، عند أحط الأجناس البشرية على صورة مبهمة وغامضة ، فكرة اللانهاية وغير المرئى ، أو كما سميناه فيما بعد بالالهى . وقد كتب المستر (كودرنجتون) وهو مبعوث مجرب ولاهوتى مفكر ، كتب من نورفولك (الولايات المتحدة) فى سنة ١٨٧٧ يقول :

« إن ديانة الميلانيزيين (بالاقيانوسية) تتألف من الاعتقاد بأن وراء هذا العالم قدرة فوق الطبيعة غير مرئية ، وعبادتهم لها تنحصر فى اتخاذ الوسائل للاستمداد منها لمصلحتهم .

وقال العلامة (جـ.ن.ب هويت) (Hewitt) عند كلامه عن هذه القدرة عند الايروكيين وهم هنود أمريكا الساكنون فى الجنوب الشرق من بحيرتى أريه وأونتاريو الآن .

قال فى مقالته : (أورندا وتعريف الدين) المنشورة فى مجلة (الانتروبولجيست) الأمريكية ، والأورندا هى المانا فى لغة الايروكيين ، قال :

« هى قدرة خفية يتصورها الإنسان المتوحش ملازمة لكل الأجسام المكونة للبيئة التى يعيش فيها ... فهى ملازمة للصخور وللمياه وللأعشاب والأشجار وللحيوانات وللناس وللرياح وللزوابع ، إلخ .

« ويعتبر العقل الساذج للإنسان هذه القدرة السبب المولد لجميع الظواهر الطبيعية ، ولكل مظاهر النشاط التى تحدث حوله » .

نقول : إن الذى قرره العلماء أن القول بوجود هذه القدرة العليا عام لدى الجماعات الأولية كافة . قال العلامة (س . دوفيسم) فى كتابه تاريخ الروحية التجريبية . (Histoire du Spiritualisme Expérimental)

« إن ما تجب معرفته والتنبه له هو أن هذه العقيدة تكاد تكون عامة بين جميع الجماعات الأولية ، والأرجح أنها تعمها جميعا دون استثناء ، حتى لدى الذين لا يعقل أن يكون قد حدث بينهم وبين غيرهم اتصال » .

ولكن الذى أوقع العلماء فى الحيرة ، وجود هذه العقيدة على الدرجة العليا

من التنزيه عند الشعوب الأولية ، وهى درجة لا تسمح بها عقولهم القاصرة التى لا ترتفع كثيرا عن العقلية الحيوانية . قال الأستاذ مارسل هابرت من أساتذة جامعة بروكسل الحرة فى كتابه (الإلهى) (Le Divin) صفحة ٢٥٥ .

« إن فى تصور المتوحشين وجود قدرة روحية عامة وغير متحيزة ما يوجب لنا شيئا من الارتباك العقلى والحيرة . ومع هذا فقد ثبت ثبوتا قاطعا أن الجماعات الساذجة تقول بهذه العقيدة وتعيش فيها . ويجب علينا أن نلاحظ هنا أن هذه العقيدة الآن يصاحبها عقيدة فى وجود الأرواح البشرية » .

نقول : ولكن الأمر الذى حير العلماء وأدهشهم أكثر من هذا هو أن عقيدة المتوحشين هذه هى القول العلمى الذى هُدى إليه العلماء فى الزمان الأخير . قال الأستاذ (فان جنيب) فى مجلة (ميركور دوفرانس) صفحة ٤٩٣ من مجلد سنة ١٩٢٤ :

« قد نبهت منذ زمان طويل ، عند ذكر خرافات وأساطير استراليا ، كيف أن عقيدة المانا التى هى أساس كل ديانة عند المتوحشين ، لا تفترق إلا من ناحية درجتها عن الأصل العلمى الراهن المسمى بالقوة الوجودية العامة » .

نقول إن هذا من الخطورة بمكان عظيم ، فإن فى ثبوت انتهاء العلم فى تحسه من علل الوجود ، إلى قول لا يفترق عما كانت تقول به الجماعات الساذجة من المتوحشين ، ولا تزال تدين به جماعاتهم إلى اليوم ، إلى جانب ما كدسته من خيالاتها فى خلال العصور ، يعتبر بحق أمرا جللا يوجب التفكير .

قال العلامة (س . دوفيسم) فى كتابه (تاريخ الروحية التجريبية) الذى تقدم ذكره فى صفحة ١٦٦ عند إلمامه بهذه العقيدة :

« بناء على ما تقدم نقول أنه مما يوجب الفخار العظيم أن نسجل أن العلم الحديث قد وصل إلى ما يقرب من عقيدة المانا التى نشأ عليها النوع الإنسانى » انتهى .

أدلة الغريزية العقلية فى هذه العقيدة الأولية :

مما لا يمكن التسليم به ، أن تتواضع جميع الجماعات الأولية منذ نشوئها ،

على القول بعقيدة تعتبر اليوم غاية ما وصل إليه العلم من تعليل الوجود .

نعم إنها عقيدة ساذجة ولكنها سذاجة تنزيه لا سذاجة جهالة ، وهى لا تفترق عن عقيدة أرقى فيلسوف فى القدرة العليا التى أوجدت الوجود ، فالفيلسوف يرى أن تلك القدرة مصدر كل خلق وإبداع ، وأنها علة كل حركة وسكون فى عالم الكون والفساد . فإن زاد على الأولين فيها قال : أنها أزلية أبدية ، لا تتأتى معرفة كنهها بالحواس ولا بالعقل ، تحيط بكل شيء ، يصدر منها كل كائن وينتهى إليها . ولا يخفى أن هذه كلها محسنات لفظية اقتضاها التبسط فى التحقيق ، ولكن كل ما يمكن أن يقال من هذا القبيل لا يزيد على عقيدة الأولين شيئا . فهم إن كانوا لا يذكرون الأزلية والأبدية ، والشمول والإحاطة ، والبداية والنهاية ، فلأنهم لم يشعروا فى أنفسهم باعتراك الشكوك ، ونزاع الشبهات ، فلم يضطروا لإحاطة عقيدتهم بالتحوطات الكلامية ضدها .

والقول بأن هذه العقيدة غريزية فى العقل لا ينافى العلم الرسمى فى شيء ، فإنه يعد من مميزات الغريزة أنها تكون عامة فى النوع ، ولا يتحصل عليها من طريق التفكير . وهذا ينطبق على ما نحن بصدده من هذه العقيدة .

فأما كونها عامة ، فقد أثبتناه لك من طريق العلم نفسه ، فقد قرر كما رأيت هنا ، أنها موجودة حتى لدى الجماعات التى لا يعقل حدوث اتصال بينها فى حين من الأحيان ، وأنها وجدت فى كل زمان إلى أبعد ما وصل إليه علم الإنسان .

وأما كونها لم يتحصل عليها من طريق التفكير ، فمما لا يمكن التمارى فيه ، فإن الأفكار ، وبخاصة الساذجة منها ، إذا اتجهت لتعليل الوجود ، فلا يتصور أن تقع على معقول واحد يعتبر غاية فى السمو والتنزيه ، يفخر العلم نفسه بأنه انتهى إليه فى عهده الأخير .

وأية غرابة فى كون هذه العقيدة غريزية فى النوع الإنسانى ، وقد قُذف به إلى هذه الأرض حاصلا على غرائز عقلية كثيرة لولاها لهلك بعد وجوده بأيام معدودة ؟

ألم يُمتع الإنسان بحظ كبير من الأصول العقلية التى أصبحت فيما بعد أساسا لعلم المنطق ، كعلمه بعدم اجتماع النقيضين ، وبأن الشىء الواحد لا يوجد فى مكانين إلخ ، ولو كنا وُجدنا فى عهد الإنسان الأول لرأينا أنه قد نشأ متحليا بغرائز عقلية أخرى ضرورية لحياته مما لا يمكنه تحصيلها بجهوده الذاتية إلا بعد أمد بعيد .

على أن من لم يشأ أن يقول بغريزية تلك العقيدة ، وجب عليه أن يدعى بأنها ثمرة تأمل الإنسان فى الوجود وهو خالى القلب من جميع الصور الذهنية ، لأن التحليل العلمى أثبت أن هذه العقيدة سبقت جميع الخيالات الوثنية ، والخزعبلات الميتولوجية . وهذه الثمرة التأملية فى عمومها وبساطتها وتجردها من الخزعبلات الفكرية ، تقتضى أن يكون العقل بحكم تكوينه الطبيعى مضطرا للوصول إليها ؛ والفرق بين الحالتين يكاد لا يذكر ، فسواء أُفطر الإنسان على أن يدين بهذه العقيدة بحكم الغريزة العقلية ، أم تأدى عقله إليها لأول تأمله فى الوجود ، وقبل تلوثه بأية صورة ذهنية ميتولوجية ، فإن الأمر يرجع فى كلتا الحالتين إلى الفطرة الإنسانية . وكل ما بين الرأيين من الفرق ينحصر فى أن هذه العقيدة لم يجدها الإنسان مطبوعة فى نفسه بدون تأمل ، وإنما وصل إليها بعد أن تَطَلَّب علة الوجود فى أول عهده بالحياة فوجدها بدون كلفة .

تطبيق هذا الأصل على الإسلام :

إن من الآيات التى يجب أن تبهر الألباب فى هذا الدين ، أنه سبق العلم فى هذه الناحية بنحو ثلاثة عشر قرنا . ففى الوقت الذى كان يتلو النبى ﷺ قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (أى حائدا عن العقائد الباطلة) ، فِطْرَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [1] ، كان الناس لا يعرفون من أسرار الفطرة الدينية شيئا ، ولا يتخيلون أن يجىء بها وحى من السماء قبل أن يهتدى إليها العلم بنحو ثلاثة عشر قرنا ، إن هذه الآية صريحة فى أن الدين الحق فطرة فى النفس تهتدى إليها بدون كلفة ككلّ ما هو فطرى فيها ، وإنه عام فى جميع أفراد النوع البشرى .

---

(١) سورة الروم : ٣٠ .

ومن العجيب أن هذا التصريح مذيل بقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، وهو حق ، فإنه لا يعلم هذا الاكتشاف إلا أفراد ممن وقفوا أنفسهم لتلقف فتوحات العلم .

والذى يقرأ قوله تعالى عن الدين الفطرى على بساطته : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [١] ، ويكون مطلعا على ما انتهى إليه العقل العلمى فى العهد الأخير ، يجزم بأن إدراكا بشريا لا يستطيع أن يصدر هذا الحكم قبل وجود دواعيه بنحو ثلاثة عشر قرنا . فإن أى عالم يعتد برأيه اليوم لا يستطيع أن يحمِّل عقله غير مؤدى هذا الدين الفطرى ، الذى اكتشف أنه كان دين الجماعات الأولية من عهدها الأقدم إلى اليوم .

لا جرم أن هذا الأمر من أعظم المعجزات العلمية فى القرآن الكريم ، وآيتها محكمة لا تقبل التأويل ، وقد زادها النبى ﷺ إيضاحا فقال : « كل مولود يولد على الفطرة (أى على الديانة الحقة) ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » أى يحوِّلون فطرته عن صراطها ، بتلقين المولود تعليمات مما تواضعوا عليه وليس من الديانة الصحيحة فى شىء .

وقد بنى الله على هذه الحقيقة أن الناس كانوا فى أول أمرهم أمة واحدة على هذه الديانة الفطرية ثم اختلفوا ، فقال : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَاحِدَةً ، فَٱخْتَلَفُوا ﴾ [٢] . وبين فى آية أخرى سبب الخلاف فقال : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [٣] . ومعناها كان الناس أمة واحدة متفقين على الدين الفطرى (كما ثبت علميا) ، فاختلفوا ، فبعث الله إليهم النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه ، فحدث بينهم

---

(١) سورة الروم : ٣٠ .

(٢) سورة يونس : ١٩ .

(٣) سورة البقرة : ٢١٣ .

اختلاف فى الكتاب نفسه ، وما اختلف فيه إلا الذين أعطوه بغيا بينهم ، أى حسدا أو ظلما ، فعكسوا الأمر فأصبح ما أنزل لإزالة الخلاف سببا فى استحكامه ، فهدى الله المسلمين للحق بإنزال القرآن إليهم ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

لو كشف هذا الأمر على هذا النحو للذين اكتشفوا الديانة الإنسانية العامة ، التى كانت تدين بها البشرية فى أيام سذاجتها الأولى ، خالصة من الخزعبلات التى أنشأتها الأفكار البشرية فيما بعد وقدستها ، متابعة لأوهامها وأهوائها ، لدهش أولئك العلماء ، ولكان دهشهم حافزا لهم على التنقيب فى مكنونات القرآن فى مجالات أخرى . ولا نشك فى أن هذا سيكون ، ونرجو أن يكون قريبا (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد العاشر ، الجزء الثالث ، (صفحة ١٤٦) ، سنة ١٣٥٨ هـ .

منطق الدين
محاولة وضع أداة علمية لتمييز الدين الحق

الأصل الثالث :

الغرض من الدين ، وما يجب أن يقوم عليه من أصول :

لقى العلم من رجال الدين فى أوربا طوال عهد القرون الوسطى ، وهى تزيد عن ألف سنة ، عنتا لم يسبق له مثيل فى الشدة بين طائفتين ، فى جميع تاريخ النوع البشرى . فقد أسست محكمة خاصة لمحاكمة رجال العلم والفكر على ما يرتكبونه مما يعده رجال الدين مخالفا لآراء الكنيسة ، وكان إذا ثبت على أحدهم شيء من ذلك استتيب ، وأخذت عليه المواثيق بأن لا يعود إليه ، فإن عاد قبض عليه وألقى حيا فى النار . فأُهلك على هذه الصورة فى مدى القرون الوسطى رجال من ذوى الألمعية العالية ، ومن العباقرة المجددين ، من نَيَّف عددهم على ثلاثمائة ألف نسمة . ولكن هذه العقوبة على فظاعتها لم تردع طلاب النور ، بل زادت عددهم ، فكانوا يظهرون كالكواكب الساطعة فى تلك السماء المكفهرة ، وكلما خبا واحد منها حل محله غيره ، غير حاسب لسوء المنقلب حسابا . واستمرت الحال على ذلك حتى ضعف سلطان رجال الدين ، لنشوء الشقاق العظيم بينهم ، بظهور البروتستانتية ، وصبوء ممالك برمتها إليها . والبروتستانتية اضطرت لاجتذاب النفوس إليها ، أن تطلق الحرية للعقول ، فخرج العلم منتصرا ، ولكنه من فداحة ما لحقه من اضطهاد رجال الدين ، جعل أول ما فكر فيه إسقاطهم وإسقاط ما يقدسونه من العقائد ، فلم يدعو ثغرة توصلهم إلى هذه الغاية إلا اقتحموها ، وأذاعوا ذلك بين الناس ، فانتشر الإلحاد بين جميع الطبقات ، وما زال ينتشر حتى اعتبر التمسك بالدين دليلا على الجهل .

ونحن لأجل أن نعطى القارئ مثلا مما كان يهاجم به الدين فى ظلال حرية الفكر ، ننقل له طرفا من أقوال العلماء : جاء فى دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية تحت كلمة (دين) ما يأتى :

« إن قلنا : إن الذوق الإنسانى يقتضى اعتقاد الأشياء التى يمكن تعقلها ، يقولون : لا ، لا ، ثم يحاولون إذلال هذا العقل الإنسانى الذى يدعى لنفسه حق التمييز بين الخير والشر ، وبين العدل والظلم ، حتى إذا تم تعمية عين العقل ، وتغشية باصرة البصيرة ، إلى حد أن تعتبر المعجزات أمورا عادية ، وأن تتوهم الأبيض أسود ، وأن تعد الرذيلة فضيلة ، يعود الدين فيهيب بالناس إلى الطاعة . فإن سألتهم نطيع من ؟ أنطيع عقولنا ، أم واجباتنا الطبيعية ، أم إحساساتنا القلبية ؟ أنطيع القوانين الحقة المفيدة للإنسانية ، والتى تنتج من تلك الأصول المتقدمة نفسها ؟ أجابوك : لا ، ولكن أطع وأنت أعمى . إلخ إلخ » .

وقال العالم فويرباخ وقد نقلته عنه دائرة المعارف السابقة : « إن الفضيلة الدينية وخاصة الفضيلة العليا ، أى فضيلة القديسين ، هى أن تنبذ الحياة المدنية والسياسية ، وأن تطرح سائر الأعمال والأشياء الدنيوية ، باعتبار أنها لهو باطل ، لأجل أن تستطيع بدون ترويج لنفسك ، وبقلب منكسر ، أن تذبل فى انتظار الجنة ، وأن تقتل جميع عواطفك وميولك الطبيعية ، وتميت نفسك وتذللها » .

يرى القراء مما مر أن هؤلاء العلماء خلطوا بين الأديان وبين ما علقه عليها زعماؤها من تعليقات وشروح وتأويلات ، ولسنا نشك فى أنهم لو جردوا كتبها من هذه التوسعات ، واكتفوا بما فيها من نصوص الوحى لأمكن اتقاء أكثر هذه الانتقادات . وقد اتبع كثير منهم هذه النزعة من الاعتدال ففصلوا بين ما هو وحى وما هو شرح أو تأويل ، ولكنهم فى النهاية أظهروا اليأس من خنوع قادتها للفصل بينها ، لما رأوا من تشددهم فى الدفاع عنها . من هؤلاء الأستاذ (بنجامان كونستان) فإنه بعد أن أفاض فى كتابه (الدين وينبوعه وأشكاله وترقيه) ، فى إيراد العلل التى نهكت الجماعات البشرية من جراء المعتقدات الباطلة ، رأى وجوب تجريد الأديان منها ، ولكنه عاد فأظهر يأسه من قبول رؤسائها لهذا التجريد فقال : « بهذه الطريقة تخلص الأديان من أوهامها ، ولكنا لا نخال ذلك يتحقق ، لاعتقادنا أنها لا تتنازل عن عقيدة من عقائدها . ولما كانت هذه العقائد تناقض العلم وتعارضه ، فيكون من المقرر الثابت امحاء الأديان وزوالها » .

ولم يغفل الأستاذ بنجامان كونستان هذا تعليل زوال تلك الأديان فقال :

« إن كل قاعدة مهما كانت نافعة فى عهد فلابد أن تكون محتوية على جرثومة تعطل الرقى فى عهد مستقبل . لأن تلك القاعدة تأخذ بطول المكث شكلا عديم الحراك يأبى على العقل البشرى مسايرته فى مكتشفاته التى ترقيه كل يوم وتهذبه . إذا حدث ذلك انفصلت العاطفة الدينية عن تلك القاعدة المتحجرة ، وتطلبت سواها من القواعد التى لا تجرحها ولا تحرجها ، ولا تزال تضطرب حتى تصادفها » .

العاطفة الدينية غريزة طبيعية لا تقبل الزوال :

بعد أن اشتد العلم فى أوربا ضد رجال الدين حتى تصدى للدين نفسه كراهة لهم ، عقب ذلك عهد مكينة واعتدال ، فنظر أقطابه فى الدين نظرة تثبُّتٍ وتحقيق ، فظهر لهم أنه يقوم من النفسية الإنسانية على غريزة طبيعية لا يمكن إزالتها ، ولا تعفية أثرها . قال الفيلسوف الكبير (إرنست رينان) فى كتابه تاريخ الأديان :

« من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شىء نحبّه ، وكل شىء نعده من متع الحياة ونعيمها ؛ ومن الممكن أيضا أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية ، والعلم ، والفنون ؛ ولكن يستحيل أن ينمحى الدين أو يتلاشى ، بل سيبقى أبد الآباد حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الأرضية » .

وقال العلامة (هنرى بيرانجيه) فى المجلد الرابع والعشرين من مجلات المجلات الفرنسية ، وهو الآن مدير لجنة الشئون الخارجية فى مجلس الشيوخ الفرنسى [1] .

« إذا كان النقد التاريخى قد هدم كل الأشكال الثابتة غير القابلة للتغير فى الأديان ، فإنه لم يستطع أن يعدو على الغريزة الدينية ، بل قد شهد باستمرارها وشيوعها فى كل دور من أدوار التاريخ ، وإن كل تلك الآلهة المختلفة والمتعاقبة تشهد بأن الإنسان مفطور على الاعتقاد بالله رغم أنفه . ففى كل جهة وكل زمان قد شوهد

---

(١) تكررت هذه الاستشهادات إذْ ذُكِرتْ من قبلُ فى باب (المستقبل للإسلام) وذكرها هُنا بمناسبة الدفاع عن الدين بمعناه العام ، فهى نصوص ذات دلالة فى الموضوعيْن معا ، ومن هنا ألح الكاتب الكبير على ترادها . (المحقق) .

احتياج الإنسان إلى الدعاء والعبادة والتضحية فى أخس الأديان الوثنية كما فى أرق المذاهب الروحية . هذه هى الشرارة النفسية التى استخلصها من رماد العصور الماضية تاريخ المقارنة بين الأديان ، فمن المستحيل عليه أن يطفئها ، ولكنه سينقلها إلى المستقبل » .

وقال الفيلسوف الألمانى (جيبزلر) فى كتابه (تاريخ المعتقدات) :

« الدين خالد مثل خلود الإحساس الذى ينتجه ، ولكن علوم الدين مثل سائر العلوم يجب أن تكون قابلة للرقى على قدر الرقى العقلى ، وذلك مثل العلاقة الموجودة بين الحقوق وعلم التشريع ، فالحقوق لا تتغير ولكن علم التشريع يجب أن يتغير ويتهذب على الدوام » .

وقال الفيلسوف المشهور (أجوست سباتييه) فى كتابه (فلسفة الأديان) :

« لماذا أنا متدين ؟ إنى لم أحرك شفتى بهذا السؤال مرة إلا رأيتنى محفوزا للإجابة عليه بهذا الجواب ، وهو : أنا متدين لأنى لا أستطيع خلاف ذلك ، فالدين لازم معنوى من لوازم ذاتى . يقولون لى : ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج . فأقول لهم : قد اعترضت على نفسى كثيرا بهذا الاعتراض عينه ، ولكنى وجدته يقهقر المسألة ولا يحلها . وإن ضرورة التدين أشاهدها بأكثر قوة فى الحياة الاجتماعية البشرية ، فهى ليست أقل تشبثا منى بأهداب الدين . إلى أن قال : فالدين إذن باق وغير قابل للزوال ، وهو فضلا عن عدم نضوب ينبوعه بتمادى الزمن ، نرى ذلك الينبوع يزداد اتساعا وعمقا تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفى ، والتجارب الحيوية المؤلمة » .

نقول : يتضح من هذا أن الرأى العلمى فى الدين قد تم نضجه ، فبعد أن بدأ العلم حياته ، بسبب السخيمة التى كان يشعر بها فى نفسه ضد رجال الدين ، مناوئا للدين ، عاد بعد أن عجز عن هدم الدين عقب كل ما بذله من جهد وعنف ، يثبت بالدليل المحسوس أن الدين لا يمكن هدمه لأنه غريزة طبيعية فى النفس البشرية . ولكنه مع هذا يرى أن كل ما حمله الدين من الشروح والتأويلات والأفكار البشرية زائل لا محالة . فلو اتفق وجود دين خال من خليط الآراء البشرية ، ومزيج التأويلات

الكلامية ، و لم يحتو إلا على أصول أولية ، ومبادئ بدهية ، فإن ذلك الدين يكون هو الحق ويتعين الأخذ به ، قال الفيلسوف الألمانى (كَنْت) المشهور :

« الديانة الحقة الوحيدة هى التى لا تحتوى إلا على قوانين ، أعنى قواعد صالحة للجرى عليها ، نشعر من ذاتنا بضرورتها المطلقة ، وتكون مجردة عن الأساطير والتعاليم الكهنوتية » .

* * *

إلى هنا انتهى علم العلماء الراسخين ، وفهم الفلاسفة المتثبتين ، وهى نهاية لا محيص عنها ، وهى نفسها الصفة المميزة للديانة الحقة التى يقرها العلم والفلسفة ، والتى ستكون – إن كانت موجودة – ديانة العالم أجمع يوم يتجرد من وساوسه ، ويتخلّص من أوهامه ، ويلقى عن عاتقه آصار الموروثات الاعتقادية ، وأوزار الشروح الكهنوتية ، والتأويلات الكلامية .

كل الذى نأخذه على العلم والفلسفة فى هذا الموطن هو أنهما تسرعا فقررا عدم وجود هذه الديانة لدى طائفة من المتدينين فى العالم ، وأن كل ما يوجد منها لا يصلح أن يكون دينا للبشرية الراقية . قال العلامة (هنرى بيرانجيه) المتقدم ذكره فى ذلك الموطن نفسه :

« إن حل المسألة الدينية هى أهم ما يشغل العالم المتمدن اليوم ، لأن مستقبل الأمم المتمدنة يتوقف على حلها . ثم قال :

« إننا لنرجو أن يتحقق هذا الحل ، لا سيما وقد تألفت الديانة القلبية ومحصت بواسطة بعض كبار الفلاسفة الفرنسيين . فإن (جان جاك روسو) و(لامرتين) و(لامُنّيه) و(مِيشُليه) و(كينيه) كانوا من كبار المبشرين بهذه الديانة (الجديدة) . وقريب منا (إرنست رينان) و(جيو) و(شوريه) و(ساباتييه) قد أعطوها قوة عظيمة » انتهى .

فإن سأل سائل : ما هى أصول هذه الديانة الجديدة ؟ أجبناه بما ذكره عنها الفيلسوف الفرنسى المشهور (كارو) فى كتابه : (البحوث الأدبية على العصر

الراهن) فقد قال : « هى الاعتقاد بوجود إله مختار خلق الكائنات واعتنى بها ، وهو متميز عن عالم الكَوْن والفساد وعن النوع الإنسانى ، ووجود روح فى جسم الإنسان متصفة بالادراك والحرية ، ومحبوسة فى هذا الجسم المادى أمدا لتبتلى فيه ، هذه الروح يمكنها بإرادتها أن تطهر هذا الجسم وتنقيه إذا عرجت به نحو السماء ، كما يمكنها أن تسفله بإخلادها إلى المادة العمياء ؛ والاعتقاد برفعة العقل على العواطف ، ووضع الحرية الخلقية التى هى ينبوع وأصل كل الحريات تحت سيطرة الاعتدال ، وإعطاء الأخلاق الفاضلة اسمها الحقيقى وهو التخليص التدريجى للنفس من علائق الجسم ، والتهيؤ لساعات الموت بالزهادة ؛ وأخيرا الاعتراف بقانون الترقى ، ولكن بدون فصل رقى الإنسان فى معارج السعادة المادية ، من العواطف الفاضلة التى هى وحدها تبرر تلك السعادة » .

وقال العلامة الكبير (جول سيمون) الفرنسى فى كتابه (الديانة الطبيعية) :

« كل أصول مذهبنا هذا واضحة لا رموز فيها . أما أصوله فهى الاعتقاد بوجود إله قادر على كل شىء لا يغيره شىء ، خلق العوالم وحكمها بقوانين ونواميس عامة ، ووجود حياة أخرى تؤدى كل وعود هذه الحياة ، وتجزى الظالم بالجزاء الأوفى » انتهى .

نقول : لو كان هؤلاء العلماء أجادوا البحث فى الديانات القائمة اليوم لوجدوا طلبتهم فى إحداها مما لم تتناولها أيدى التحريف ، ولكن يجوز أن الذى صدهم عن مثل هذا التعمق فى البحث أنهم لم يصادفوا لها مظهرا ماديا من أحوال الشعوب التى تدين بها فلم يريدوا أن يتعبوا أنفسهم فى تلمسها من كتبها .

تطبيق هذا الأصل على الإسلام :

هل تتوافر الشروط التى يتطلبها العلم والفلسفة للدين الحق ، على الإسلام ، فيكون هو الدين الذى يصدق عليه أنه الدين العام للبشرية ؟

إنها تتوافر فيه ويزيد عليها إيذان من الله للناس كافة بأنه الدين العام الخالد . فلننظر الآن فى هذه الشروط وفى وجوه انطباقها على الإسلام :

يكتفى العلم والفلسفة حيال الديانة الحقة بأن يتوافر فيها شرطان اثنان : (أولهما) أن لا يكون فيها غير قوانين أى قواعد صالحة للجرى عليها تشعر النفوس بضرورتها المطلقة ؛ و(ثانيهما) أن تكون خالية من الأساطير الخرافية والتعاليم الكهنوتية .

والشرط الأول مجمل يحتاج لتفصيل ، فإن القوانين أى القواعد الصالحة التى تشعر النفوس بضرورتها المطلقة تشمل ما هو خاص بالاعتقادات وما هو خاص بالمعاملات والعبادات ، وما هو متعلق بالمحللات والمحرمات ، إذ لا يعقل أن يخلو دين منها .

فهل كل ما فى الإسلام مما هو خاص بهذه الأمور يعتبر قوانين صالحة لأن يجرى الناس عليها ، بل يشعرون بضرورتها المطلقة ؟ لننظر فى ذلك :

ما هو خاص بالاعتقادات فى ديانة القرآن :

أول ما طالب القرآن الناس به من هذا الأمر الجلل : (الإسلام) ، ومعناه لغة : الاستسلام ، والمراد به شرعا : الانقياد إلى إرادة الله ، وعدم التعصب للمورثات والتقاليد والعادات والأهواء والأوهام ، للتذرع بها إلى مقاومة إرادة الله .

ولكن أين هى إرادة الله ، وكيف نميزها من إرادة المدعين ؟

إرادة الله ممثلة فى الطبيعة ، وفيما أنزله مصدقا ومهيمنا عليها من شريعة ، فكل شريعة تنافى الطبيعة وما فيها من العنصر العقلى ، لا تكون شريعة لله ، فإن الله أجل من أن ينقض قوله فعله .

من هذا الأصل أصبح لدينا أداة مميزة ، للتفرقة بين ما هو إلهى من الشرائع وما هو مفترى على الله . فماذا دعا إليه القرآن تحت هذا الضوء القوى من التمحيص ؟

دعا إلى إقامة الدين ، الدين الذى ينطبق عليه هذا الشرط ، فدعا إلى دين الفطرة ﴿ فِطْرَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [1] وقد بينا لك فى فصل سابق أن الإنسان

---

(١) سورة الروم : ٣٠ .

مفطور على الاعتقاد بصانع قدير حكيم ، وبوجود حياة وراء هذه الحياة ، وعلى إكبار الفضيلة ، واحتقار الرذيلة ، وعلى حب الخير وكراهة الشر إلخ . وقد اهتدى كبار علماء أوربا الذين قاموا بوضع الدين الطبيعى إلى هذه الأصول كما رأيت . وهذا أدل دليل على أنها فطرية أى طبيعية ، وأن النفس تشعر بضرورتها المطلقة حفظا لوجودها .

ولكن الاعتقاد بالله واليوم الآخر ، وبضرورة الأخلاق إلخ ، قد جر الناس إلى الاختلاف فيها ، والتناحر عليها ، فأيهما على حق وأيهما على باطل ؟

الخطب سهل ، وهو النظر أيها يوافق الطبيعة ، وهى عمل الله ، وأيها يخالفه ؛ والأداة الطبيعية للتمييز هو العقل ، فالذى يوافقه يكون هو الحق .

العقل لا يسلّم أن يكون خالق الكون مما يمكن إدراكه بالحواس ، ولا معرفة كنهه بالفكر ، ويرى أنه يجب أن لا يشبهه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أن لا يحاط به علما : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ (١) .

ويرى هذا العقل وجوب الوقوف من جميع المعتقدات عند هذه الحدود الطبيعية ، وأن لا يصار فيها إلى ما تستحسنه الأهواء ، أو تصوره الأوهام ؛ وأن لا يعول فيه على التقليد ، ولا على الوراثة ، لأن هذه كلها تفضى إلى الأخذ بما لم ينزل به الله سلطانا ، وتكون عرضة للاختلاف والتنابذ بين الناس ، كما هو مشاهد محسوس بين عقائد البشر ، ومراد الله أن يجمعوا على كلمة واحدة لا يتطاول إليها النقد ولا التجريح ، ولا تخالف ما وضعه الله من أداة لتمييز الحق من الباطل .

وقل مثل هذا فى كل ما يختص بسائر المعتقدات ، وهذا هو الذى قرره الإسلام ، فقد دعا إلى الله ، وأقام على وجوده الدليل ، فقال : ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (٢) ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَالِقُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة طه : ١١٠ .
(٢) سورة إبراهيم : ١٠ .
(٣) سورة الطور : ٣٥ .

ثم أمر أن يرجع إلى حكم العقل فى كل ما يندرج فى باب الاعتقادات ، وأن يقام عليه الدليل ، وأن يتجنب فيه التقليد للآباء ، والتعويل على الأهواء ، والأخذ بالظنون ، فقال تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (٤) ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ (٥) ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (٦) ، وقال تعالى فى الكافرين : ﴿ إِنَ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (٧) أى يكذبون .

ما هو خاص بالمعاملات :

إن ما وضعه الإسلام من الأصول للمعتقدات يسرى على المعاملات أيضا . فقد جعل أساسها العدل الطبيعى المطلق ، لا العدل الإنسانى المقيد ، والفرق بينهما أن الأول لا يعتد باختلاف الأجناس والألوان واللغات والأديان والأحوال فالكل فى نظره سواء ، والعدوان فى نظره عدوان بصرف النظر عمن ارتكبه وعمن ارتكب ضده ، وجزاؤه لا يتغير بتغير الأشخاص . وأما الثانى فيفرق بين الناس اعتبارا لكل هذه الفروق .

وقد أمر الإسلام الإنسان بالعدل حتى فى مواطن القتال فقال تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ، ٱعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (٨) ، أى ولا تحملنكم كراهتكم لقوم على أن لا تعدلوا فيهم . وقال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ

---

(١) سورة البقرة : ٧٣ .
(٢) سورة الروم : ٢٤ .
(٣) سورة الصافات : ٦٩ .
(٤) سورة الاسراء : ٣٦ .
(٥) سورة الأعراف : ٣٣ .
(٦) سورة ص : ٢٦ .
(٧) سورة الأنعام : ١١٦ .
(٨) سورة المائدة : ٨ .

آللهِ آلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ آللهَ لَا يُحِبُّ آلْمُعْتَدِينَ ﴾ [١] .

وأمر فوق ذلك أن لا يجهز على جريح ، ولا يتعقب مهزوم ، ولا يقتل خدمة المحاربين ، ولا يعتدى على الشيوخ ورجال الدين والنساء والأطفال والعبيد ، وأن لا تخرب بلادهم ولا تحرق ثمارهم ، وأن يحسن إلى أسراهم ، بل أمر أن لا يُسَبوا ، فقد سب قوم قتلى وقعة بدر فكره النبى ﷺ ذلك وقال للسابين : « لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون ، وتؤذون الأحياء ، ألا إن البذاء لؤم » .

إن دينا يأمر أهله بمعاملة أعدائهم على هذا النحو لجدير أن يعتبر مثلا أعلى فى المعاملات وأن تتسارع الأمم إلى الدخول فيه .

ليس فى الإسلام جزئية من جزئيات المعاملات إلا وأحيطت بمثل هذه التعاليم العالية القدر ، الجديرة بالإكبار والإجلال ، وليس يتسع لنا هذا الفصل لنأتى على تفصيل لهذا الإجمال ، وحسبك أن تعرف ما وصى أهله به فى حالة الحرب لتدرك مبلغ ما وصاهم به فى الأحول العادية ، فى جميع ضروب المعاملات ، من المساواة والإنصاف ، وتجاهل جميع الاعتبارات فى نصرة الحق على القوة ، وتحرى العدل الطبيعى المطلق فى كل حال .

ما هو خاص بالعبادات :

فى كل الأديان عبادات ، وهى أعمال قصد منها تهيئة الإنسان للاتصال بمبدعه فى أحوال خاصة من الركوع والسجود ، أو الإمساك عن الطعام ، أو الحج إلى أماكن مقدسة إلخ ، وحتى هذه العبادات فى الإسلام تجدها مدبرة تدبيرا بحيث تلائم الطبيعة ولا تشذ عن دائرة الأمور المعقولة . وقد قرر لها الإسلام دستورا عاما يتألف من أصول رئيسية لابد من مراعاتها فيها ، وهى :

(١) التكليف بقدر الاستطاعة : ﴿ لَا يُكَلِّفُ آللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [٢] .

(٢) فرضت العبادة لإصلاح الإنسان لا لتسخيره ولا إعناته : ﴿ مَا يُرِيدُ آللهُ

---

(١) سورة البقرة : ١٩٠ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٦ .

لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ، وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) ، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ (٢) .

(٣) الضرورات تبيح المحظورات : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ ٱللَّهِ، فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ (٣) .

(٤) يجب الاعتداد فى العبادات بحالة الإنسان من الضعف والقوة ، ومن الصحة والمرض ؛ وبواجباته نحو نفسه وأسرته ومعاشريه ومجتمعه . يفصل لك هذا الإجمال كله ما ورد عن النبى ﷺ حين بلغه أن عبد الله بن عمرو بن العاص يبالغ فى العبادة . فقال له : ألم أخبَر أنك تقوم الليل وتصوم النار ؟ قال : بلى يا رسول الله وإنى لأطيق ذلك . فقال له : كلا ، بل قم ونم ، وصم وأفطر ، فإن لبدنك عليك حقا ، ولزوجك عليك حقا ، ولزَوْرك عليك حقا (أى ولزائريك) . الحديث .

(٥) العبادة الروحية والعقلية خير من سائر العبادات . قال النبى ﷺ : « درهم من عمل القلب خير من مثل جبل أحد من عمل الجوارح » . وقال : « فكر ساعة خير من عبادة سنة » . وقال : « ما تقرب أحد إلى الله بشىء أفضل من طلب العلم » . وقيل له يوما : ليس فينا يا رسول الله من يشبهك فى العبادة غير فلان ، فإنه منقطع لها لا يزاول عملا سواها . فقال لهم : فمن يمونه ؟ قالوا : يا رسول الله كلنا نمونه . فقال لهم ﷺ : « كلكم أفضل منه » الحديث .

(٦) كل الأعمال التى يقصد بها الإنسان غاية شريفة لنفسه أو لأسرته أو لمجتمعه أو لبنى نوعه ، أو لأى كائن من الكائنات ، يعتبر فى الإسلام من أجل العبادات : كبدء صاحبِ السلامَ ، وقضاء حاجة لمضطر ، وتنفيس كربة لمكروب ، وكإماطة أذى عن طريق ، وصلة رحم ، وإسعاف حيوان ، وسقى نبات صديان ، إلخ إلخ ، قال عليه الصلاة والسلام : « إن المرء ليؤجر فى كل شىء حتى فى اللقمة يرفعها إلى فى امرأته » .

---

(١) سورة المائدة : ٦ .

(٢) سورة البقرة : ١٨٥ .

(٣) سورة البقرة : ١٧٣ .

هذه العبادات كلها أعمال شخصية واجتماعية تعتبر من أخص ما تقتضيه الحياة المدنية ، وقد رأيت أن الإسلام يرفع قيمتها على العبادات البدنية ، ويحض عليها بكل ضروب المغريات الثوابية فى الدنيا والآخرة . ومن أعجب ما نقدمه من الأمثلة على ذلك ما رتبه على تنظيف الأسنان بالسواك ، والاستحمام يوم الجمعة ، من أجلّ المكافآت .

أمثال هذه العبادات يستحيل أن تصادف اعتراضا من أحد من المفكرين ، ولا أن تثير شكا فى كونها من أجل العبادات المستوجبة لأرقى الدرجات ، إن أريد بها وجه الله ، فى نظر أناسى قيل لهم إن الفضيلة هى أن تنبذ الحياة المدنية والسياسية ، وأن تذبل فى انتظار الجنة ، كما رأيت ذلك فى مقدمة هذا الفصل .

خلو الإسلام من الآراء الكهنوتية :

من الشروط التى يرى العلم والفلسفة وجوب توافرها فى الدين الحق ، خلوه من الأساطير والتعاليم الكهنوتية . وهل شرع الإسلام إلا لتحقيق هذا الغرض نفسه أى لتخليص البشر من سلطان الأساطير القديمة ، والتعاليم التى سنتها طوائف نحلت نفسها حق الوساطة بين الله وخلقه ، فأثقلوا عواتق الشعوب بتكاليف لا تقصد بها إلا تذليلهم لعبادتهم ، وتسخيرهم لخدمتهم ؟ لذلك لم يدع الإسلام وجها من وجوه التأثير فى إسقاط مكانات الأساطير ، ومكانات المسيطرين ، إلا أتى به لإسقاط دولتها ودولتهم ، قال الله تعالى فى الأساطير : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ [١] ، وقال : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ، إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [٢] وقال فى إسقاط المسيطرين على الأديان : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [٣] . وليس بعد هذا استفظاع للاستسلام لمدعى الوساطة بين الله والناس . وما يحسن إيراده فى هذا الموطن أن عدى بن حاتم ، وكان من أهل

---

(١) سورة النجم : ٢٣ .

(٢) سورة يونس : ٣٦ .

(٣) سورة التوبة : ٣١ .

الكتاب ، قال للنبى ﷺ : ما كنا نعبدهم يا رسول الله . قال : أو لم يكونوا يحلون لكم ويحرمون ؟ قال : بلى . قال النبى ﷺ : فذاك . أى هو ذاك . ومعناه أن التسليم لهم بحق التحليل والتحريم يعتبر عبادة لهم ، فإن ذلك من حق الله وحده .

وقال تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً (أى رجعة إلى الدنيا) فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ، كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ (أى يوم الحساب) رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ (٢) ، ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ (٣) . وقال تعالى : ﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ، كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ، حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ : رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ. قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) . أى أن لكل من المقلَّدين والمقلدين عذابا ضعفا . ولا مشاحة فى أنه يستحيل أن يؤتى بأبلغ من هذا الزجر فى إسقاط الذين يعطون أنفسهم حق السيطرة على أرواح الشعوب ، وفى ردع الذين يأخذون ما يلقونه إليهم باعتبار أنه واجب الاتباع .

وقد نهى الإسلام عن تقليد أى إنسان كائنا من كان ، إلا بعد محاكمة أقواله إلى العقل ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ، قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ، أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٥) وفى آية أخرى : ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة البقرة : ١٦٦-١٦٧ .
(٢) سورة الأحزاب : ٦٧ .
(٣) سورة الأحزاب : ٦٨ .
(٤) سورة الأعراف : ٣٨ .
(٥) سورة البقرة : ١٧٠ .
(٦) سورة الزخرف : ٢٢ .

وقد نبه جميع أئمة المسلمين إلى خطر التقليد ، وأهابوا بالناس إلى استعمال عقولهم فى كل ما يلقى إليهم . فقال الإمام أبو حنيفة : « حرام على من لم يعرف دليلى أن يفتى بكلامى » ، وقال : « هذا رأى أبى حنيفة ، وهو أحسن ما قدرنا عليه ، فمن جاءنا بأحسن منه فهو أولى بالصواب » .

وكان الإمام مالك إذا استنبط حكما قال : « انظروا فيه فإنه دين ، وما من أحد إلا مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا صاحب هذه الروضة » (يعنى النبى ﷺ) .

وقال الإمام الشافعى لتلميذ له : « يا أبا إسحق لا تقلدنى فى كل ما أقول وانظر فى ذلك لنفسك فإنه دين » .

وقال الإمام أحمد بن حنبل : « انظروا فى أمر دينكم فإن التقليد لغير المعصُوم مذموم وفيه عمى للبصيرة » .

وقد أجمع المسلمون على ذلك فى كل زمان ومكان حتى يومنا هذا .

* * *

وبعد : فقد ثبت من كل ما مر أن الدين الذى يتطلبه العلم والفلسفة هو الإسلام ، فقد توافر فيه شرطاهما ، إذ ليس فيه كما رأيت إلا قوانين تشعر النفس بضرورتها المطلقة ، وهو مجرد عن الأساطير والتعاليم الكهنوتية (*) .

* * *

(*) مجلة الأزهر : المجلد العاشر ، (صفحة ٢٩١) ، سنة ١٣٥٨ هـ .